ثمرات الوجدان

تتضمن مقالات في الأدب والاجتماع

(بقلم)

محمد طه محمود

وكيل مدارس السلطان حسين بشبرا

الطبعة الثانية

١٣٤٧ - ١٩٢٩ م

المطبعة المتوسطة بالعشماوى بمصر

ثمرات الوجدان

تتضمن مقالات في الأدب والاجتماع

(بقلم)

محمد طه محمود

وكيل مدارس السلطان حسين بشبرا

الطبعة الثانية

١٣٤٧ - ١٩٢٩ م

المطبعة المتوسطة بالعشماوي بمصر

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد حمد الله والصلاة على نبيه فلقد عاقتنى صروف الحياة ومحنها عن إعادة إظهار هـذا الكتاب فى ثوب قشيب ومنعنى انصراف الناس عن الأدب قديمه ومستحدثه من أن أضيع جزءا من وقتى فى طبعه ودار الفلك دورة بعد دورة وأنا بين إقدام وإحجام فيما يتعلق به ولكنى خشيت أن ألحق بالغابرين الأولين قبل أن أحوز شرف عرضه على نابتة البلاد الذين نتخذهم عدة لرفع منار الوطن المفدى

ولما كنت لا أرتضى القصور لنفسى استمددت من ضعفى قوة وصغت وشيه إذ أعتقد أن فى الأقدام نجاح الأعمال فلم يقع تحت بصرى شخص قبع فى كسر بيته ونال مجدا أثيلا أو شرفا عظيما

وما أنا بالأديب سمت عبارته ورق أسلوبه ولا بالبليغ

ملك قياد البيان وضرب بسهم وافر فى الأخيلة البديعة ولا بالحكيم يصف الدواء الناجع للنفوس فتسترشد برأيه إلى مواطن الصواب وإنما أرانى تعلقت بأذيال الأدباء وإنى وإن لم أصل بعد إلى مقام ذوى الخيال الواسع والعقول الراجحة التى نعتبرها مرجعا فى المعضلات والمشكلات إلا أننى أكتب لك بعض التصورات النفسية التى لها مساس بالأدب والاجتماع معتمدا على وجدانى ووحى ضميرى وما خبرته من حوادث الدهر وخير الكلام ما أملاه الوجدان وما نطق به القلب

وحسب القارئ الكريم أننى عنيت بقدر ما وسعه جهدى بالغرر الحميدة والأخلاق الفاضلة وصورت له كثيرا من الصفات المرذولة بشكل ينفره منها ويقفه على مضارها ولئن تبين من بطون هذه الرسائل أنى أقصد فى بعضها ذكر قصص شخصية ولكنها فى الحقيقة لعبرة يستخلصها المطلع عليها ولغرض اجتماعى لا يخفى على النجيب

ولست أدرى أفى عملى هذا نفع لمن يمضى بعض

سويعاته فى قراءته أم أكون قد أسأت إليه من حيث
قدرت له الفائدة وعلى كل حال فالحقيقة الواضحة أن لكل
امرئ تصورات قد تصيب كبد الحقيقة أو تكون بمعزل عنها
كما يشاهد ذلك فى آراء الجهابذة وأفكار الأغمار لذلك
كان من ألزم الوسائل وأنجع الأدوية الاطلاع على نفثات
الكتاب ومقالات الأدباء حتى لا يضل الفكر ولا تسوء العقبى
والشاب أجدر الناس سعيا بالبحث والاطلاع خشية
أوقاته الثمينة سدى بل يجب أن يصرف ميوله فيما ينفعه فى
معاشه ومعاده ولو أن الأمانى التى يتعلل بها الشبان
والأحلام التى يسبحون حولها تحقق لكان عهد الشباب عهدا
مباركا وعصر الشبيبة عصراً له شبه صلة بأيام الجنة التى وعدها
المتقون فمن العبث أن يضيع فى الترهات وأبشع النزعات
يارعاك الله بينى وبينك تشابه فى هذا الثوب الخلق
وتجمعنى وإياك ديباجة الشباب غير انى قطعت مايربو على
نصفه وانحدرت نحو المشيب فأحطت بما لم تحط به بعدُ
ولعلى أديت لك الأمانة من نصح فى القول وإخلاص فى الكتابة

وأخيرا هذا كتيبي لست أقصد بأنشائه وتحريره شيئا إلا خدمة المجموع من أمة ربيت فوق أرضها ونهلت من نيلها والسلام على من اتبع الهدى وقال صوبا؟

محمد طه محمود

الابتسامات

ما أجمل الابتسامة وما أعذبها. تعرف فيها نضرة النعيم وتجلو صدأ القلوب وتنكس أعلام الأسى وألوية الأحزان

إنها في رونقها وبهجتها كالوردة الزاهرة والريحانة الزاهية وإنها في ثغر الحسناء كالزمردة الخضراء أو الياقوتة الحمراء بل إنا لو اتخذنا لها تعريفاً أدل عليها لم يسلس القلم في يدنا ووقف اليراع قبل بلوغ الغاية من حقيقتها لأنها أكبر مما ذكرنا وأحسن مما شبهناها به

والابتسام سفير من سفراء اللطف ووزير من وزراء الظرف وإمام من أئمة الوئام يجله العالم أجمع ولقد كان للملوك والخلفاء ندماء أخصاء يفيضون عليهم سوابغ نعمائهم ويجزلون لهم العطاء من هباتهم وصلاتهم لقصصهم الرائقة وملحهم البديعة ومضحكاتهم الجميلة التي تسر الخاطر وتقر الناظر وتشرح الصدور الكئيبة. ولا ريب أن الابتسام في معظم الأحيان علامة من علامات البشر التي نعبر بها عن سرور النفس

والعاقل لا يقبل مهما كلفه الأمر ما كلفه أن يجعل له أية علاقة مع من كان من طبعه تقطيب وجهه ومن غرائزه حدة الطبع فى قومته وقعدته لأن من ضروريات المعاملات حسن الخلق وبشاشة الوجه ولين الجانب . ورب حرب ضروس تقطعت فيها الرقاب وتطاحن فيها الألوف وضاع بسببها الحرث وأهلك النسل اندلعت من شرارة حدة الطبع وأضرمت نارها من عدم لين الجانب

وأول أثر يرتسم على محيا الماجد أو العصامى حين الاعتراف بفضله وتأدية الكرامة الواجبة له تلك الابتسامات وبعبارة أخرى عند نجاح المرء فى أية مهمة من مهامه يتهلل وجهه فيقطر منه ماء الابتسامات وإن التملل بالآمال قد لا يتم إلا إذا أشفع بهذه الابتسامة ولا يغيب عنك ابتسامة يكررها من حاز فخار الانتصار فى الجحافل والوقائع ونال الفوز فى أعماله

على أنها فى تعبيرها عن السرور وبرهنتها على الفرح قد تكون أيضاً عنواناً من عناوين الكآبة ومظهراً من مظاهر

الشقاء فقد يبتسم الأنسان يأساً وقد تكون وشاحا يتستر تحته المغلوب على أمره ليوهم الناس أنه كان من الفائزين

وكثيراً ماتغرنا الظواهر والرجال أسرار فنفهم عن بعضهم عكس حالته فتراه يبتسم كثيراً وفؤاده يتلهب من جمرة الغضى والأحزان وأحشاؤه تكاد تتفتت من الهموم والآلام وقد ادعى بعض الفلاسفة ان من يضحك كثيراً لابد وأن تكون آلامه كثيرة غير أنى أرى العبرة فى ذلك ترجع الى رحمة الله فجعل ذلك لتفريج الكروب وتخفيف وطأتها الشديدة التى تذهب بالحياة بين هم مؤلم وحسرات ملمة إذلو استمر الأنسان فى كدرلمات كمدا وغما

تلك الابتسامة التي نلقبها بالعذوبة ونشفعها بألفاظ التمجيد قد تكون أيضاً غرضاً من الأغراض السيئة فتكون للسخرية والازدراء والأهانة والتحقير وقد تكون أحبولة للغش وسهما من سهام المكر والدهاء ومرمى من مرامى الأذى

تبين مما تقدم أن الابتسامات وإن اتفقت فى شكلها

فأنها تختلف فى مقاصدها وإن اتحدت فى أسلوبها فأنها لاتشترك فى معانيها فالطير الذى يرقص من الألم حين ذبحه لايعقل أن ذلك من سروره ومن يبتسم حين رفعه على آلة الأعدام لاتصدق ان ذلك إشعاراً بغبطته فلا تغرنكم الظواهر ولازخارف الدنيا إن هى إلا متاع الغرور

اين السعادة

أين مقرك أيتها السعادة وأين أنت ألا أستطيع أن أقف بناديك برهة وجيزة ثم تذهبى حيث شئت أم لابد لى أن أجثو على ركبتى لاستعطافك لعلك ترقين لحالى وترحمين فؤادى الذى مزقته الحوادث وسحقته الكارثات فى غدوى وآصالى .

أستحلفك باسمك الباهر ومقامك الرفيع أن تدليني على مكانك أو ترشديني كيف أصل اليك فقد أرخى الدهر بيني وبينك حجاباً كثيفاً عجزت عن إماطته وقصرت دون إزالته

مابالك صامتة لاتجيبين ومطرقة لاتنصتين أتخشين

من شيء أو تخافين من أمر فان كنت كذلك فاخبرينا لنعلم سبب هجرك الطويل وبعدك المؤلم ، أم أنت قد أخذت بالرأى الذى يقول خُلقُ الزمان عداوة الأحرار ، فرضخت لسلطاته فبعُدت بينك وبيننا الشقة

أذكرى أنني قد كل سعيي فى سبيلك وكلت قدماى من وخيدى ورسيمى فى التنقيب عنك فى الجهات التى كنت أظن وجودك فيها وقدضاع تعبى سدى بين الطلول والرسوم كأنك لم تخلقي على الناس أو ليس عندك ذرة من الرحمة فضربت برجائى عرض الحائط

صحت عزيمتى واخلولق أن ينجح مسعاى فأصبحت بعد لأى على وشك أن ألقاك وآنس بك حتى لا يكدر صفو عيشى وحسبت أن الليالى سالمتنى فأغفلت عنى هنيهة ريثما أمتع الطرف بطلعتك الغراء ولكن طاش سهمى وخاب ظنى إذعلمت أن ذلك انما هو خيال موهوم وبرق خلب كونته الأمانى وصاغته الأحلام

أيتها السعادة

رأيتك فى عالم الخيال جميلة تفوقين كل حسناء خلقت كما شاءت وتكونت كما ودت فهمت بك هيام المجنون بليلاه وكثير بعزته وإن هى إلا طرفة عين حتى وجدتك تبخلين باللقاء وتتحجبين عنى خلف أسوار منيعة تحجب القمر في ليلة ليلاء تلبد سماؤها بالغيوم وما عهدى بالحسان كذلك لاسيما وقد علمت صدق محبتى ووقفت على مقاصدى وعرفت أن لا بغية لى فى هذا الوجود إلا أن أراك بجانبى أستظل بظلك الوارف وأنهل من ينابيعك العذبة وأعلّ من ماءك الصافى ورضابك السلسبيل البقية الباقية من حياتى

إن كنت والمال توءمين متشابهين، وحليفين لا يفترقان، فعلى رسلك علام بكى الأغنياء وبمقتضام دكت عروشهم وبأى كتاب يتألمون تألم الثكلى فقدت وحيدها بل ما بال الغنى الساحب أذيال الكبرياء ، الشامخ بأنفه إلى عنان السماء ، يئن أنيناً شديداً ويتألم آلاماً جساماً ، أليس ماله شفيعه لديك ومسهل له السبيل لديك ؟

أيها الغنى

ما الذى يحزنك هذا سر من أسرارك لا تطلعنا عليه وليس من صالحنا السؤال عنه غير أن هيئتك دلتنا أن الشقاء لازمك لزاما فقاسمتنا أحزاننا وشاطرتنا آلاما كنا نظن أنها خاصة بنا — بل نحن نسأل الله العافية من حالك التى تعمى وتصم ونحمده على آلائه ونعمائه ونبتهل اليه أن لا يوقعنا فى البئر التى زل قدمك فيها ولنترك أمرك تعانيه وحدك وأوصابك تجالدها على انفراد وكل ما فى المسألة أننا فهمنا منك بعض أمرك وعرفنا أن السعادة أمر والمال أمر آخر .

أيتها السعادة

إن كنت خاصة بالأغنياء فقد أصبحت على هذا وقفاً على القليلين ولا حكم للأقلية والفقراء كثيرون تطمح نفوسهم لنوالك ويتلمسون مواطىء أقدامك فماذا عليك لو قربتهم منك بل لماذا تسيئين معاملتهم وماهم بالجناة ولا بالخونة ورحمة ربك وسعت كل شىء

إن كنت فى الكاس والطاس فقد رضينا أن نتبرأ منك براءة الذئب من دم ابن يعقوب وأحب الينا أن نكون بمعزل عنك وللشقاء والحالة هذه أولى وأجمل

أليست الخمر مصيبة لا تعدلها مصيبة وداء لا نظير له وأين السعادة إذن فيما ذكر فهل يعد سعيداً من يقطع أوقاته فى أمر لا فائدة منه إن لم نقل فِى اضرار وسحب ويلات على نفسه

لا أغمط السكيرين حقهم ولا أتعرض لهم فقد نكبوا بشر مستطير وأصيبوا بخطب فادح . وقد يقولون أن لهم بعض السعادة فى ارتشاف الكؤوس وماهى إلا سعادة وهمية لا تلبث أن تزول فى لمح البصر ويعقبها بعد ذلك ضعف فى الأعصاب وخور فى القوى واعتلال فى الجسم وياليت الأمر يقف عند هذا الحد إذ ينشأ عنها سقوط الكرامة وتشجيع النفس على عمل أمور لا تحمد مغبتها ولا يحسن عملها على الأطلاق وكيف يرضى بالجنون من وهبه الله عقلا سليما ولبا ذكيا وجنانا ثابتا

أيتها السعادة

يحسبك البعض فى مغازلة الغيد ممن بعن العفاف بأبخس الأثمان أو فى مواصلة من كن شريفات فأصبحن لا يعرفن للحياء قيمة ، فانطعن للشيطان واستسلمن للفساد وانقدن للموبقات انقياد الأعمى .

وهل يباع الشرف بالخسة وهل تماثل المومس حَصانا شريفة ومالنا بتتبع المعاصى التى من نتائجها الأمراض المستديمة التى تتعدى من المرء الى أبنائه وأحفاده وهلم جرا كأن من يسلك هـذا السبيل عضو أشـل أو بالحرى خطر عـلى الهيئة الاجتماعية يحمل لها من الأوباء مايحمله القدر من الشرور . وهذا لايتفق مع السعادة فى شىء مطلقاً

وإنك لو تتبعت السعادة لوجدتها تختلف باختلاف المشارب وتباين الأغراض فالسعادة فى نظر البخيل أن يرى أمامه قطع الذهب الوهاج فيضمها فى أضيق الحبس والسعادة فى نظر الزارع أن تنبت أرضه نباتاً طيباً والسعادة فى نظر التاجر أن لايعود بصفقة المغبون والسعادة فى نظر الجاهل

أن يجد ماتشتهيه الأنفس مما لذ وطاب من مختلف الأطعمة والألوان والسعادة فى نظرى أن أرى قومى على أحسن حال مؤتلفى القلوب متحدى الكلمة يعملون على ترقية شأنهم ويبذلون النفس والنفيس فى سبيل الحصول على أحسن مستقبل لوطنهم العزيز

إذن ليست السعادة على هذا النحو فى نظر الجميع سواء بل منها ماهو للجاهل وما شاكله وهى سعادة سفل مبدؤها وانحط مقامها . ومنها السعادة الحقيقية التى تنطبق على أصول ثابتة وهى سعادة المجموع إذ بسعادة الجماعات سعادة الأفراد . ولايتأتى ذلك الا بنشر الآداب وترقية المدارك وإحياء العلوم

أيتها السعادة

علمت الآن أن الأخـلاق الحميدة والجد والاجتهاد وخدمة الوطن الخدمة الصحيحة من الوسائل الموصلة اليك فطوبى لمن عرف مقامـك وطوبى لمن كان تحت رعايتـك وتحت لوائك ؟

الطائر المغرد

بينما كنت أمتع النظر فى بعض كتب أدبية وأغوص وراء لآلئها لأتصيد شواردها وأصلح الجنان بفصاحتها وحكمها (وكذلك حال الأديب إذا وفق إلى ديوان حسن فكأنه فى نظره إيوان كسرى واذا دبج يراعه بيتاً من الشعر فكأنه ملك قصر غمدان وإذا حاك برد مقال منطبق على السياسة الحكيمة فكأنه جلس فى دست الوزارة أو اعتلى كرسى الأمارة) وكان الليل قد أشرف على الهلاك وأوشك النهار أن يقتله بنور ذكاء حيث أخذ يظهر رويدارويدا فأغلقت كتبى مابين منثورها ومنظومها ، وفارقت أبا العلاء ولزومياته وأبا تمام ومنتخباته والمتنبى ومبتكراته والأصمعى ورواياته وجرير ومساجلاته والفرزدق ومناقشاته على أمل مقابلتهم فى الليلة القادمة واقتربت من نافذة بجوارى لأروح عن نفسى قليلا قبل الذهاب الى عملى وكان السكون لايزال كما هو وإذا بطائر صغير حط رحاله على شجرة عالية قطوفها دانية وصار يصوت تصويتا رخيما ويغرد تغريدا شجياً

دونه تواقيع الألحان وتقاسيم الأعواد فأعرته أذناً صاغية وطربت من أنغامه أيما طرب . ثم أخذ يحلق ههنا وههنا ثم هبط ثانية على مقره المذكور وشجرته المعهودة وعاد إلى ما كان عليه من سابق أمره غير حاسب للقدر أى حساب ولا للدنيا أدنى قيمة ولم ألبث غير قليل وإذا بصبى لم يبلغ الحلم بعدُ أصاب هذا الطائر بنبله فأسقطه بغير حراك ولم أعلم من أمره أكثر من ذلك

أيها الطائر

لقد انقلب سرورى منك حزناً عليك وطربى من بهاء صوتك أسفاً على حياتك التى عبث بها صبى لا يعرف قيمتها

أيها الطائر

إنك لم تتعود الأذى فعلام جوزيت بالموت وبمقتضام أعدمت الحياة . لاشك أنك نظرية من نظريات الوجود التى ينبو فيها الفكر ويضل فى شعابها الوعرة

يكفينى أيها الطائر المسكين ما أنا فيه من شجون وما أعانيه من أوصاب . ألم يرسلك الله إلى إلاّ لأتوجع لمصابك

وأذرف دموعا حارة على دمك المسفوك ظلما وعدوانا

أيها الطائر

إن الذى سلبك الحياة صغير لا يضمر السوء ولا يصر على العداء وماذا تستفيد أنت من الانتقام منه وقد أصبحت جسداً هامدا وصرت رفاتاً سحيقا

أيها الطائر

لقد فكرت فى أمرك كثيراً فوجدتك عبرة من أحسن العبر وبرهاناً يثبت أن المرء ابن يومه وليلته مهما كان من أمره ومهما بلغ من شأنه فهل يتذكر الناس ويعملون الصالحات الباقيات

حب الثناء

تميل النفوس الى الأطراء وتصبو الى حب الثناء وتشمئز من الاستهجان ولو كانت النية حسنة والأمل معقودا على النصيحة والأرشاد

ولبعضهم ولع غريب فى تسطير عبارات الشكر لأنفسهم فى بطون المجلات والصحف أو نشرها فى كل منتدى يغشونه

ويبذلون قصارى جهدهم فى ترويج هذه الفكرة بالحق وبالباطل وينفقون فى هذا السبيل المال الجم ولو أدى بهم ذلك إلى الفقر المدقع والبؤس الممقوت

وقلما وجدنا شخصا لا تأسره عبارات التحبيذ فينصاع إلى مقرظه انصياع الأعمى إلى الآخذ بيده فيجيب مطالبه ويخصه برعايته ويفيض عليه النضار إن ضرب فى الغنى بسهم ويتخذه سيدا مطاعا يقوم بخدمته عن طيب خاطر. كل هذا لمدح خاص به نشره على الملأ أو تفوه به أمامه ليخلب لبه ويجعله طوع بنانه للبانة يدركها أو غرض يقصده

واذا كنا لا نرتضى المدح فى غير موضعه فأننا لا نرتضى الذم فى غير موضعه والفرق واضح بين من يمدحك لمكارم أخلاقك أو لفضيلة عرفت بها أو لمروءة خصصت بها ذوى الحاجات والمعوزين وبين من يذمك لنعمة أسبغها الله عليك حسدا منه ومن يعزى اليك من المخازى ماليس فيك لأنك بلغت منزلة ليس له أن يصل اليها ولو بشق النفس والذم فى عرفى على هذا النحو نقيصة لا يركن إليها الا العجزة

وقصار النظر ومرضى القلوب

ولا ينكر أحد فائدة الثناء ومقدار تشجيعه على نمو جلائل الأعمال فأن المرء إذا رأى من الناس استحسان خلة فيه حميدة تهالك حرصا عليها وقمع ثورة نفسه الأمارة بالسوء حتى لايحرم من هذه الميزة والطالب إذا سمع من أستاذه عبارة تتضمن تقدير مجهوده سهل عليه تحصيل دروسه ولم يثن عزمه عنها صعوبتها وكثرة موادها وطول الشقة من وقت دخوله المدارس إلى يوم مبارحتها

ألا ترى أنك تشعر بعطفك نحو أى عظيم يخدم وطنه بنصح ويؤدى مافرض عليه من الواجبات لشعبه بأخلاص تام وإنك لاتتوانى لحظة واحدة عن تمجيده وإذا طعن عليه أحد تطوعت فى الحال لدرء هذه المطاعن وأدليت بالحجة لتبرهن على عظمته وبراءته مما ينسب إليه زورا وبهتانا

وعندى أن الثناء من أقدس الواجبات لذى الهمة القعساء والكرم الحاتمى والشهم فى كل موقف ومغيث الملهوف والعامل الذى لايلج باب الأهمال والفتاة المهذبة والمرأة

المخلصة لزوجها القائمة بتدبير شئون بيتها وتربية أبنائها خير قيام

والجزاء الحق من جنس العمل فلا نغالى فى المدح بغير طائل ولا نذهب مذاهب الشعراء فى وضع من يمدحونهم فى صفوف الملائكة الأطهار أو الكواكب فى عليائها وربما كانوا قذى فى عين الفضيلة أوليس لهم فضل وفوق هذا فالأغراق مجلب للشك والريبة فلا تتخذه وسيلة فى مدح أى شخص مهما كان أمره

والثناء طريقة مثلى تؤدى إلى نتائج طيبة على شريطة أن يكون عن جدارة واستحقاق فأن السواد الأعظم من الناس يعجبون بالتجلة ويطربهم الاحترام وفى هذا المعنى يقول الحكيم (حب الثناء طبيعة الأنسان)

على أن الأنسان إذا انتظر بخدماته وجوب الشكر له كان كمن لم يعمل شيئا فراعوا المروءة لذاتها وأكرموا اليتامى لوجه الله واعملوا كل أمر تمليه عليكم ضمائركم لنصرة الأنسانية ولا تنتظروا جزاء ولا شكورا إذ لا شكر على واجب ولقد

يحسن أثر الثناء إذا صفت القلوب ونأت السرائر عن الطباع المرذولة وعلى النقيض من ذلك إذا كان عماده الاستخفاف والازدراء ومنبعه المداهنة و لرياء يقول أمير الشعراء فى مطلع إحدى قصائده

خدعوها بقولهم حسناء والغوانى يغرهن الثناء

ولهذا فهو كأحبولة بنيت على الخديعة والمكر وشرك نصب لأمور لاتحمد مغبتها فكأنه جاء على وجهين مختلفين أحدهما بشير الخير وثانيهما نذير السوء

ولو استطعنا كشف مخبآت النفوس أو علمنا مقدار ماتنطوى عليه من اللؤم لأخذنا الاحتياط لأنفسنا لأنه ليس أضر على بنى البشر من صديق

يعطيك من طرف اللسان حلاوة

ويروغ منك كما يروغ الثعلب

ولاتثريب على من يرميه حظه النكد وبخته العا

إلى مخالطة اللؤماء ولكننا نوجه كل لوم الى من يطأطى رأسه إجلالا لمن يمدحه بماليس فيه ويلهج بالثناء عليه آناء

ء

الليل وأطراف النهار لا لمكرمة أدلى بها اليه ولا لاحسان خصه به وما دفعه الى ذلك إلا اشراء فؤاده بتلك الكلمات الخلابة التي تعود ذكرها في كل حين

لحا الله قرناء السوء فما أقدرهم على الضلال وما أبلغهم في وضع نظم الغواية ما بين آونة تمر وأختها والحمد لله أولا وآخرا

حسنات الغرام

لى مذهب فى الغرام ربما حرجت فيه على العرف إذ أرى له نفعا وأعتقد أن من سبر غوره تتهذب نفسه ويسمو إحساسه ويخرج عن ذلك الجمود الذى انصف به كثير من بنى آدم

ولست أقصد ذلك التبذل الذى ينتهى بمعصية الله فقد أعلنت عليه الحرب من الساعة التى بدأ فيها القلم يخط نظراتى الاجتماعية وآرائى الخلقية

وانى وإن شربت الكأس مترعة من الهوى العذرى ورأيت فيه صنوف الهوان ونالنى منه ما نالنى من عناء ووبال إلا أننى أرى فيه حسنات كثيرة لا يستهان بها ولا يمكن إنكارها عند الموازنة والمفاضلة بين سيئاته ونقيضها

فلقد علمنى كيف أكتب لا على النحو الذى تعوده صبية المدارس ولا فى موضوعات مزايا الأمطار والقطر البخارية أو وصف شارع مكتظ بالسابلة وقرية شيدت أبنيتها باللبن المجفف فى الشمس ولا فى الكتابة عن طرق الأضاءة والانتقال مما لا يخرج عنه أساتذة الأنشاء فى كل معهد وإنما سبح اليراع فى مشاعر النفس والعواطف القلبية وآلام الحياة واحتمال المكاره

وحال بينى وبين كل حسناء وجعلنى لا أفكر فيما يريب لأن ذهنى انصرف بكلياته وجزئياته الى من هويت وكل محاولة يحاولها معى من أخذوا عهد الضلال على إبليس مقضى عليها بالفشل

ودلنى على مقاومة الدهر بكل ما أوتيت من قوة لأبلغ حد الكمال ماديا وأدبيا لأن الغانيات لا يعجبن بالخاملين ولا يرتضين البائسين ويضنن بقلوبهن عن أن يتحكم فيها معدم أو مجهول وتدفعهن أطماعهن إلى سحق أفئدة من اعتقدوا فيهن الوفاء إلى آخر رمق لا ستبدالهم بخير منهم إذ الثبات على المبدأ لا يتمسك

به الا القليل ومن أجل هذا يرى الباحثون المدققون أن الحب الشريف نادر الوجود أو يكاد يعتبر اسما على غير مسمى

وألهمني الصبر وهو مر المذاق وأنار لى سبيل الشجاعة ومقاومة العاذلين والتغلب عليهم وأكسبني خبرة بحيل الفتيات وما يعمدن إليه من الطرق الموصلة إلى نجاحهن فى مآربهن وكم لهن من عتاب يذيب الفؤاد ويخلبه

وسارعت من أجله إلى التضحية بنفسى وبراحتى فكم من ليلة سهرتها وحيدا أساير النجم وأصاحب القمر فلما اضجنى المضجع مرة بعد مرة عمدت إلى الكتب أغذى النفس بما ورد فيها من حكم وعظات وما تضمنته من طرائف وفوائد لأنشغل بها عما أنا فيه من تفكير عميق وتشريد بال فأدى ذلك إلى توسيع مداركى نوعا ما وشحذ ذهنى بما تفضل به المؤلفون الذين خدموا العلم ووسعوا نطاق الأدب واستفدت من ذلك الشيء الكثير وفى هذا حسنة قل أن يوجد لها نظير وليس بعد وعى ما خطه الأدباء غاية

ولاشك فى أن أمهات اللغات حافلة بما دبجه يراع الشعراء

فى الغزل والنسيب وترك اولئك البلغاء ذخيرة غالية فى وصف من أحبوا أو فى شكوى الزمان أو فى التعبير عما عانوه من وصب وما لاقوه من تعب فكان ذلك فى اللغة العربية عونا لنا على فهم مفرداتها وأساليبها فلقد بلغ من تقديس رجال القريض له أن صدروا قصائدهم لمناسبة ولغير مناسبة بما يشعر بتأثيره وإن ادعى الشعراء الغرام بالباطل ليكسبوا قصائدهم رونقا وبهاء وعلى الجملة أرشدنى الحب الشريف إلى إدراك معنى الأخلاص والولاء وبث فى روحى أثرا طيبا من الكمال والأقدام وفهمت بسببه معنى الحياة ومادام الأنسان يفكر مليا فى أى أمر ليبحث فى تفاصيله بحثا تاما أمكنه أن يستخدم قواه العقلية ويمرنها على الأدراك فيصفو ذهنه ويسمو لبه ويحسن تصريفه للأمور

هذا مايدعيه العاشق ومايقول به من عانى الصبابة ناسيا آلامه وتباريحه من عذاب أليم وشقاء عظيم ورأيى أنه فى دعواه محق وفى قوله مصيب لودام الوفاء بين المغرمين ولم تكن للشيطان يد فى تحويل حسناته إلى سيئات وجماله

إلى قبح وقانا الله شره وحفظنا من أوصابه ونكباته فكم قضى على أنفس ودك من عروش ونسأله الرحمة بالعاشقين وتخفيف الضر والبلوى على المغرمين

حديث القبلات

عرفت فيمن عرفت فتاة أجنبية تجمعني وإياها صلة المهنة ويربطني بها شرف الصناعة

ولقد أدركت من مظهرها نبل مقاصدها ولمحت فيها أدبا جما وخلقا حميدا وقد أخطىء فى الرأى لأنى لم ألم بماضيها ولكن قد تنم حالات الانسان عن نفسيته وتدل على مايكنه ضميره وما يختبىء من أسراره

قابلتها يوما وقد ملك الحزن قيادها وانبعث من صدرها أنين تجده فى نفثات المصدورين ورأيت فى عينها دمعة تترقرق وهى تمشى متثاقلة تطيل التفكير كأن أمرا عظيما يشغل بالها وحادثا جللا نزل بها

فاقتربت منها واستفسرت عن مصدر ألمها وسر انزعاجها وحاولت إخفاء الحقيقة عنى ولكن بدون جدوى لأنها لم

يستطع إلى ذلك سبيلا وبخاصة لأنها تعتقد فى الاخلاص البرىء مما يشين ولا تشك قيد شعرة فى تقديسى للكمال وتقديرى للسمات الراقية والطرق القويمة

وأخيرا قصت على حكايتها على النحو الآتى حيث قالت . ـ طلب يدى شاب من أسرة عريقة فى المجد معروفة بالغنى وتوسمت فيه الوداعة ولين الجانب وظننت أن سينتهى أمرى معه بزواج طاهر فأستقبل عيشة راضية جاءنى يبكى أو يتباكى متلمسا المعاذير لتأجيل موعد القران حتى يستطيع التأثير على وجدان والديه لأنهما رفضا إتمام ذلك للتباين الظاهر بين فقرى وغناه وما كان لى أن أندم أو أحزن غير أنه ظل يسد على الطريق أنى ذهبت وحيثما توجهت واعتمد على الألفاظ الغرامية والعبارات التى تتضمن الأطراء والأغراء فاتضحت لى نياته وعلمت أنه يريد الاستمتاع فقط وليس فى قدرتى إبعاده عنى وهذا هو السر فى تألمى فهل لك أن ترشدنى إلى مايجب أن أعمله فقلت لها هذه مسألة فيها نظر فليس من واجبى أن أتدخل بينكما وربما كان صادقا فى دعواه أو تتنازعه عاطفة الحب وطاعة الوالدين

فأكون قد صدمته فى وجدانه وأسأت اليه دون أن يجرم

فأطرقت قليلا ومالبثت أن اندفعت محتجة بقولها وهل مصلحته فوق مصلحة بائسة مثلى ليس لى ياسيدى من حطام الدنيا سوى شرف احتفظ به وسمعة لاغبار عليها حتى هذه الساعة وأريد أن أدبر خطة بمقتضاها أدرأ عن نفسى أذاه فهل لك أن تمثل معى دورا غراميا على مرأى ومسمع منه لعله يرتاب فى سيرى فيتركنى طائعا مختارا وهو الآن فى انتظارى ليصحبنى إلى البيت (فى الترام)

فرأيت من واجبى موافقتها وإن كان فى ذلك خطر يتهددنى من أعدائه لى ولاشك أن ماتنبأت به أصبح أمرا واقعا إذ عندما استوى بنا الجلوس فى (الترام) وهو بجانبى طبعا تجاهلته وسردت معها حديث القبلات وهى لا تنكر وتبدى إشارات الاعتراف ولا أبالغ اذا قلت انى ما أجدت فى حياتى شيئا إجادتى لتمثيل هذا الدور العارى عن الحقيقة لأنى أربأ بنفسى أن ألمس غادة أو أقبل حسناء لاتسمح لى شريعتى بارتكاب هذه الخطيئة معها واذا استعرضت ماضى،

بحذافيره لا أذكر أن قدمى ساقتنى الى ريبة قط

وسمع الشاب الحديث الوهمى فاتخذنى ألد أعدائه ووضعنى فى زمرة خصومه ولكنه لم يطلق سبيلها بل لازمها كظلها وأفضى إليها أن سينالنى منه أذى وما أنا بالجبان حتى أخشى تهديده والذى فعلته ماهو إلا ما أملاه على الضمير وما قرره الواجب إلا أنه حسما للنزاع قابلته وشرحت له الحقيقة حتى يطمئن باله ويرتاح خاطره لا هربا من قوله ولا فراراً مما اعتزمه وإنما لأبدى له النصح لأنه باللين يدرك مالا يدرك بالعنف

قابلنى بالبشاشة وأخجله حديثى على ما أتصور واعتذر عما فرط منه وأكد لى أن مقصده شريف وسوف يبتعد عنها ما لم يأذن الله باقترانه بها

*
* *

هذا ما رواه لى زميل وقد لا يهم القارىء كثيرا مثل هذه القصة ولكنى آثرت نشرها والتعليق عليها من الوجهة الاجتماعية لأن مثلها محتملة الوقوع فى كل وقت بين الغربيين والشرقيين

فبالنسبة لزميلي آخذ عليه هذا التدخل فطعن القلوب ليس بالأمر الهين وربما اتخذته هذه الفتاة هدفا لغرض من أغراضها والعقل يقضى أن لا يتعرض امرؤ لأخطار المغرمين فقد يسهل عليهم تعريض أنفسهم للأخطار وما كان لنا أن نكون ضحية فى سبيلهم ما دمنا لا نشرب من الكأس التى يشربون منها وفوق هذا فالمسألة سهلة هينة فكلمة واحدة تقصيه كما أن كلمة تدنيه ولا تباع القلوب بالقوة ونحن فى القرن العشرين

والذى أستطيع استخلاصه من هذه القطعة البسيطة أن عدم التكافؤ المادى بين الزوجين له أثر سىء لدى أفقرهما والرأى عندى أن السعادة بكامل معانيها لا تكون إلا إذا تساويا حسبا ونشبا ولا أدل على ذلك من فساد الزوجية فيما نحن بصدده قبل الشروع فى تنفيذها

ولا ذنب لهذه المسكينة إلا إملاقها وليت شعرى إلى متى يتشبث الناس بعرض الدنيا الزائل ويتمسكون بأهداب الغنيات وخير لهم وأبقى التمسك بالشريفات اللواتى

يرفعن رءوس بعولتهن

وهنالك نظرية أخرى فقد يتخذ الأغنياء هذه الطريقة وسيلة للتأثير على عقول البائسات إذ يدفعهن الأمل لإنارة مستقبلهن إلى مرضاتهم والعفة ثوب يمزقه الفقر ومن الجائز أن يكون بطل هذه الحادثة ليس من هذه الزمرة فما ملكنا قياد الناس وما علمنا أمرا عن قوم نجهلهم ولكنها نتيجة منطقية تذرعنا بها في سرد آرائنا

ومما تصبو اليه نفسي أن أرى قومي يفعلون مايقولون فأن عبر أحدهم عن فكرة أو شرح ماعلق بفؤاده من هوى عذرى فليكن رائده الحقيقة وغايته لايختلف اثنان على مدحها ولكن أنى لنا ذلك والغيات على اختلاف نزعاتها ليست في الغالب سليمة

على أنه لقطع الألسنة ينبغى أن ينتهى مثل هذا الموقف بالزواج أو بالفراق الأبدى والواجب يتطلب ذلك ولا يرضى محب مخلص أن يسىء الى موضع أمله لاسيما أن أحاديث الناس تضير

. . .

وفى النهاية أطلعت زميلى الذى روى لى القصة على ما تضمنته مقالتى هذه فلم يخالفنى فيما ورد فيها غير أنه أكدلى مرة أخرى حسن خلق بطلة الرواية وجمال أدب الفتى الذى أحرج صدره ثم أصر على فكرته ولم يعترف بأنه أخطأ وادعى أن المروءة والشهامة تقضيان بما فعل وليكن مايخبئه القدر مادام طاهر الذيل بريئا من الخطايا والآثام فودعته مهنئا إياه بأجادته التمثيل وبغرامه الخيالى وقبلاته الوهمية

فى سبيل الواجب

كان ضمن الفتيات اللواتى نيط بى شحذ أذهانهن وتعليمهن تعليما خاصا فتاة فى مقتبل عمرها وريعان شبابها.

ماهى بالجميلة حتى يتهمنى القراء بميلى لها وحنينى إلى قربها ولا بالخليعة حتى يقال إنها أثرت على صوابى وملكت قيادى فخضعت لسيف لحاظها فلقد تخطيت العقدة الثالثة فانصرف ذهنى إلى واجبى العائلى شأن كل امرىء مسئول عن رهطه موكل بالانفاق على أبنائه وما أفردت لها فصلا قائما بذاته فى كتابى

إلا لأن قصتى معها عجيبة ولأن قرناء السوء أرادوا أن ينالوا منى ويحطوا من قدرى لأنى وقفت حجر عثرة فى طريق نواياهم الخبيثة ونجحت فى هذا نجاحا باهرا

ماذا يقصد اللؤماء من مدرس عارف بواجبه عامل على تهذيب تلاميذه وتلميذاته أيترك لهم الحبل على الغارب أم يسعى جهده فى إيقافهم على ما يرفع شأنهم ويمنع عنهم الغمر فى الحال والاستقبال ولئن عد تأدية الواجب جريمة فقل على الدنيا العفاء

لايهمنى أن يشوهوا سمعتى ولا يؤلمنى الادعاءات الباطلة وأن يوجهوا سهامهم نحوى فمن الجبن أن أختط لنفسى طريقة مثلى ثم لا يكون عندى من الشجاعة الأدبية ما أستطيع معه تنفيذ ما اعتزمته مادمت قادرا على أن أخترق الصفوف وأطعن الباطل فى صميم فؤاده

وإنى لأعترف هنا أن فى خلق والدها طيبة يتصورها الأغبياء ضعفا ولكنى بعشرتى له وخبرتى إياه أعتبر هذا بساطة لأنه يتصور أن الناس سواء لا يرتكبون منكرا ولا يقترفون

إنما ولست أدرى أعاش هذا الوالد فى غرفة مظلمة بمعزل عن العالم فلم ير الأشخاص الشريرين ولم يسمع بحادثات السقوط التى تعرض لها الضعيفات أو انتابت البائسات أم لم يقرأ فى صفحات الوجوه مايدل على الخبث والنوايا السيئة فسمح لهم بغشيان منزله مرارا والجلوس بجوار ابنته والائتناس بمحادثتها ومسامرتها

ولايتوهم أحد أن فى خلق الفتاة مايريب فهى شريفة المبدأ ولاأسمح لنفسى أن أتهمها بحق أو بباطل وإنما خشيت عليها من الغواية فأحللت نفسى محل والد بار واعتبرتنى مسئولا عنها لأننى أستاذهـا والمشرف على تعليمهـا فقسمت دروسى إلى قسمين قسم علمى وقسم خلقى وأبنت لها الطريق القويم فخضعت لإرادتى وامتثلت لأمرى ونفضت عنها ذلك الغبار الذى يعد شجى فى الحلق وقذى فى العين

وقدمت لها النصيحة تلو النصيحة وأفهمتها ان فى الاختلاط مايشين ونفرتها من الأباطيل التى يعمد إليها بعض من لا خلاق لهم لافساد مستقبل بنات حواء حتى أضحت مثلا حيا لمن

تريد أن تمر باللغو مر الكرام ومن لا تكترث بالدموع المكذوبة أو العبارات السخيفة

ولقد رأيت منها ميلا إلى حديثي ورغبة فى الاستزادة من فقراتى وإقبالا على نصائحى وشعرت أننى أريد لها الخير وكلما هممت بتركها حاولت أن أبقى بجوارها قليلا حتى أتمم القول فى الحديث الذى أبدأ فيه ولم أر مانعا فى موافقتها إذ كان هذا عندى بمثابة بلوغى القمة من المقصد الأسمى الذى قصدته

فالعلاقة إذن بينى وبينها لا تتعدي علاقة أستاذ جاد فى عمله يؤدى واجبه على الوجه الأكمل وبخاصة عند مغادرتى لمنزلها تشكرنى بحرارة كأنما كانت غريقة وانتشلتها من الغرق أو معرضة للهلاك وأنقذت حياتها

وليس هذا هو الذي أردت أن أحدثك به أيها القارىء الكريم وإنما هى مقدمة ذكرتها لأبين لك فى متممها مقدار ما أعانيه فى سبيل الواجب ولكى أحضك على عدم الاكتراث بما تلاقيه فى حياتك إن كانت وجهة نظرك

تقديس الشرف والكمال

فلقد حرم على هؤلاء رؤيتها ومنعوا بتاتا من زيارتها فادعوا أنى ما فعلت هذا إلا لخدمة نفسى والاستئثار بها دون غيرى وليكن مايدعون فأن الأمر خاص بها ولها أن تختار من تشاء أما أنا فمسرور جدا لأنى أحسنت صنعا بالقضاء على ترهاتهم

ولما آنسوا من أنفسهم خزيا رأوا أن يسيئوا إلى من طريق آخر فكلفوا نساءهم أن يفدوا إلى منزلى ليبلغوا عشيرتى القصة مقلوبة ليكون للغيرة أثر فعال فيخلولهم الجو ولكن قوتى فى الاقناع وحجتى فى درء مازعموا جعلت المكر السىء يحيق بأهله

وكأن المسألة ليست مهنة وكأن المدرسين يجب أن يقلعوا عن هذه الصناعة ويقبعوا فى كسر بيوتهم لأن هنالك فئة لاترتضى أن يكونوا شرفاء متمسكين بأهداب العفاف عاملين على نصرة الآداب ذلك أنى عندما أزورها أرى الشرفات مملوءة بالسيدات يتغامزن والرجال يقفن عند

مروري وقفة أشعر منها بأن الغيظ يحرق أفئدتهم

وأسمع بعضهن يقلن مالهذا المدرس قد خص هذه الفتاة بوده ورعايته فهو لا يتقاضى عن تعليمها أجرا وما هي ذات عيون دعجاء ووجه مستملح وإذا قورنت بغيرها في ميدان الظرف وبداعة الشكل هزمت ولم تعد شيئا مذكورا

وأسمع بعضهم يجاهرون بأني استخلصتها لنفسي وسوف لا يمضي إلا القليل من الزمن حتى يبني لي عليها ويعدون الدقائق التي أمضيها معها ويستمعون أقوالي بواسطة أبنائهم أو نسائهم ويتلمسون لي هفوة يجعلونها غرضا ينكلون بي بواسطته فيأيها القوم لا يعنيكم أمري ولا يهمكم شأني ولا تظنوا أني عدوكم الألد وإنما ضربت لكم مثلا لعلكم تفيقون من غفلتكم ألا يسركم أن أكون مخلصا في عملي وهل يضيركم أن أتطوع لخدمة طالبة رجاني أبوها لما بيننا من الصداقة أن ألقنها العلم في بعض أوقات فراغي

ليس من الشهامة ياقوم أن تضروا إخوانكم بالإساءة

الى بناتهم ولاحاجة بكم الى تلك الطرق المقيمة التى تمجها الأسماع وتعافها النفوس الراقية

أما أنتم أيها الآباء فلتكن رقابتكم على بناتكم شديدة ولاأقول ضعوهن فى أضيق الحبس ولكن أبعدوا عنهن تلك الذئاب الضارية وافتحوا أعينكم ولاتسمحوا بأى تقصير يبدو منهن وعاونوهن على البر والتقوى ومروهن أن لا يتبرجن وبثوا فى أفئدتهن ماينفعهن فى مستقبلهن ولاتثقوا بأحد تلك الثقة العمياء فأن الحرب العوان التى أعلنت على مصدرها جهل أحدكم بواجبه فلو أنه عرف قوانين الحياة ودرس طبائع العالم لكفانى مئونة المشقة واستهدافى لهؤلاء الطغاة

أما أنت أيتها الفتاة لقد أديت لك الأمانة كاملة ولك أن تسلكى بعد هذا السبيل التى ترتضينها ويسرنى منك تقبلك آرائى بثغر باسم ووجه باش ويعجبنى حسن ذكائك وفطنتك عندفهم أى غرض أرمى إليه ولذلك كنت لاأعمد الى الطريق

المباشر لكيلا أحرج صدرك ومع ذلك كنت أرى المرامى التى أريد ذكرها واضحة فى نظرك بالمعنى الذى أرغب فيه

أريد منك أن لاينطق فك إلا بما أمليه ولا أن تخطى حرفا إلا بما ينطبق على ما سردته عليك واعتقدى اعتقادا جازما أننى على صواب فى الرأى فلقد أتيح لى من الفرص مامكننى من فهم ماتكنه الأفئدة وماتخفيه الصدور

وربما اطمأن بالى من جهتك ولكنى ما زلت فى شك ليس بالمريب لأن مجرد القول لايكفى إلا إذا برهنت الأيام على صدق ما عولت عليه

ولقد عرفت ما آل اليه أمرى معك فكان حقا على أن أتركك لمصلحتك ومصلحتى أو بعبارة أوضح أحرى بى أن أقطع علاقتى معك رحمة بك وإشفاقا على مركزى وقيمتى الأدبية ومادمت قد كرست حياتى للتعليم والأصلاح وجعلت قلمى وقفا على الفضيلة ففى سبيل الواجب مالاقيت ومازعم الموتورون

النقد والأغراض

أمامى الآن ديوان شاعر من الشعراء المجيدين وكتاب أنشاه أحد الأدباء ممن يذكر فضلهم فى هذا الباب فى هذا العصر الذى أجدب، فيه الأدب وكسدت سوقه كساداً يكاد يذهب بروائه وأمامى أيضا صحيفتان من الصحف السيارة فى أبحاثها الفنية نقد قصائد الأول وإظهار أغلاط الثانى من لغة وصرف وتراكيب ومعان الى غير ذلك فطبقت النقد على الحقيقة فاذا الأول براء من النقص وإذا الثانى بعيد عن الخطأ وإن كانا غير معصومين وقد ظهر النقاد بمظهر السماجة فلا تكاد تقرأ لهم غير ألفاظ الشتم والسباب التى ما أنزل الله بها من سلطان . ينبغ النابغة فيتصدى له من لم يصل الى درجته بدافع الحسد يريد أن يطفىء سراج نبوغه وما هو ببالغ هذا الشأن وينشد الشاعر أبياتا موطدة الدعائم ثابتة الأركان يجوب صيتها الخافقين لمعانيها العذبة وألفاظها الفصيحة فيقال عنه أنه يتعمل الشعر تعملا ويعتمد على السرقات وينسب لنفسه آثار الأقدمين وشعر السالفين بدون حجة دامغة

أو دليل وجيه وينثر الناثر فقرات غاية فى الابداع وكلمات حسنة التنسيق سهلة المأخذ كالسلاسل الذهبية فيدلى إليه النقاد دلو العداء لحاجة فى نفس يعقوب باسم النقد وإحياء اللغة ويريك الصانع عملا من أعماله المتقنة فتجد كثيرا من الناس قد تحفزوا ليميطوا اللثام عن الخطأ الخفى فى هذا العمل وبدلا من أن تقف على الصواب تسمع إن هذا العامل حقير ولم يتعلم على أساتذة مهرة يؤخذ برأيهم ويعتد بفكرهم وهكذا

ويظهر أن النقد لم يتعد بعد دور الاحقاد كما وأن التقريظ والتزكية لم يكونا الا للممالأة فى الصحبة وما كان أغنانا عن التنزل بالأذهان إلى معرفة الضغائن الشخصية لأنك لو قرأت أى نقد لأى كاتب سمعت من خلال سطوره رنة هى رنة العداء وشنشنة هى شنشنة الحسد

تموت الحقيقة موتا لاقيامة بعده بين هذه الأغراض وليست العقول ألعوبة تتلاعبون بها معاشر الكتاب فتملأون جداول صحفكم بمشاغلكم الذاتية فوقت الجمهور أثمن من أن يضيع وراء هذه الأهواء الفاسدة والآراء السخيفة وإن كنتم

تريدون الخدمة الصحيحة المكلفين بتأديتها فأخرجوا من صدوركم هذه الضغائن إبان الكتابة فالناس لا يعنيهم أمركم ولا يهمهم شأنكم ولا يبحثون إلا عن آرائكم ولا بغية لهم إلا الاطلاع على قول يصلحون به أحوالهم وفكرة صائبة يجعلونها منحى من مناحيهم

إني والحق أقول قد ضقت ذرعا من هذا الامر اذا أقرأ بالأمس أن فلانا أشعر الشعراء وأمجد الأدباء وأين الكسائى من نباهته وقس من فصاحته والبحترى من كفاءته وابن هانى من رقته وقد اختص دون غيره بالمديح والثناء وان هى إلا عشية أو ضحاها فاذا به أديب .تطفل على موائد الأدب وشاعر لا قيمة لشعره وكاتب يرص الكلمات رصا

ألا يكون الانسان حيال ذلك فى حيرة لأنه لا يعلم أى الأمرين الأصوب فالمقرظ هو عين الهاجى والفرق فقط أنه مدح فى حالة الرضا وذم فى حالة السخط

احترام المبدأ قبل كل شيء ومن لا مبدأ له لا يحسن به أن يحشر نفسه فى زمرة الكرام الكاتبين وقد قيل من

دلائل الحلم أن يملك المرء روعه فى حالة الغضب لذلك من وجد نقده متناقضاً يكون طائشاً ونحن أحوج الناس إلى كتاب عاملين مملوءين حكمة ووقاراً خالين من نزعات الأغراض السيئة

إنا لا نعارض فى النقد ولا نمانع فيه اذ لو تركنا كل عمل على ما هو عليه لنشأ الخلل فى أساليب اللغة وانحطت الكتابة شيئاً فشيئاً فكل كاتب يظهر أغلاط الكتاب والشعراء وأرباب الأقلام نشكره ولكن نرجو أن لا يكون النقد وسيلة من وسائل النكاية وغرضاً من أغراض الانتقام فيكون فى نظرى سيان من أعتقد فى إخلاصه لى ومن أشك فى ولائه ما دمت أخدم مبدأ واحداً وهو الحق وأقدس المنفعة العامة اكثر من تقديسى لمصالحى الذاتية

والذى علمنيه الاختبار أن أكثر النقاد ينحون هذا النحو لأمور ثلاث . طلباً للشهرة . حباً فى الانتقام . لحاجة فى النفس

أما طلب الشهرة وبعد الصيت فأبوابهما كثيرة مفتحة

غير هذا الباب وعبثا تحاول هذا المطلب ما دمت لم تثبت قدمك فى مسالك البيان والشهرة من سبيل الخدمات الجليلة خير بكثير من الشهرة من سبيل نقد العظماء وانتقاد العلماء والوقوف حجر عثرة فى طريق النبغاء وإن كان المقصد فى ذلك بلوغ غايتهم فاضرب على النغمة التى ضربوا عليها وأما الانتقام بهذه الطريقة فمن العبث بالتأكيد لأن العمل ما دام حسناً لا تشوبه شائبة فلا يمكنك التعرض له بأى حال فتكون النتيجة عند ذلك هزيمة المنتقد وأما من ينتقد لحاجة فى نفسه كطلب الهبات والسعى وراء المال وأولئك نفر كثير فلا حيلة لنا فيهم وإنا نسأل المولى سبحانه وتعالى أن يهديهم صراطاً سويا ويصلح أمرهم لكيلا يخوضوا فى أعراض الناس جهرة

وإلى هنا لا يفوتنا ذكر الكلمة الآتية :

من دلائل الجد إبانة الخطأ الحقيقى الذى نبا به قلم كاتب نابه بشرط أن لا يكون مسوغه أحد البنود الثلاثة الماضية خشية أن يكون ذلك ممزوجا بعبارات تجعل القارىء فى ريبة

فيخرج من المطالعة لا يثق بهـذا القول ولا يعتقد بصحته ويهزأ بصاحبـه ـ وعلى مقتضى ذلك إن وفقت لنقـد شيء فأظهر الأدلةالقوية على صدق دعواك مع احترام من تنتقده احتراما يشهـد لك بأنك فى صفوف الأدباء ويبرهن بأنك فى عداد المؤدبين

اختيار الزوجة

لا تعتب أيها الزوج المخفور زمامه على الدهر الذى قادك إلى زوجة فاسدة القلب فمطخت عرضها وشيعتها نفسها على أمر لم يكن لك فى الحسبان لأنك لم تختر زوجة صالحة ولم تحسن الانتخاب

ولا تصعد زفراتك بمقدار ما يختمر فؤادك من الشجون لأنك وكلت أمرك فى انتقاء الزوجة الى فئة لا هم لها غير الأتاوة التى تتناولهـا من الفريقين غير ناظرة الى ما كلفت به وعندها سيان شقاء الزوجين وهناؤهما

يقولون إن أردت إبرام أمر كهذا فاطرق باب الغنيات ممن لا يحملنك مؤونة الزاد ونصب العيش فأن الزواج افتتاح

حياة عائلية لا يمكنك أن تقوم بحاجياتها على أحسن نظام مادمت عاملا لا تمتلك من حطام الدنيا غير جعلك الذى تتقاضاه شهريا كأنهم غاب عنهم أصلح الله شأنهم أن لذة الحياة فى هذه الدريهمات القليلة وخير للمرء أن تضمه الرابطة المتينة بمن له فى ودها نصيب

مالى ومال المرأة ولم أخلق فى هذا الكون إلا للعمل والجهاد فى سبيل المعيشة لا لأكون عالة على الأعناق وإن حياة الخادم البسيط الذى تشاطره زوجه مرارة العيش وتقاسمه سراءه وضراءه خير بكثير من حياة رجل يسكن قصرا يحوى من الخدم مائة وينام على فراش وثير وأثاث فاخر مادامت زوجته لا تأبه بأمره ولا تحفل بشأنه

ليست المرأة الا أنيسا يسرنى وجودها معى تعاوننى على أداء التدبيرات المنزلية بشرط اتفاق أخلاقى مع أخلاقها ولا يكون ذلك الا بحسن الاختيار

ورأيى أن الرجل واجب عليه اختيار زوجته بنفسه غير ناظر إلى الثروة والجاه ولا معتمد إلا على نفسه فى هذه

المهمة وحين إذ ذاك إذا أساء الاختيار فالتبعة واقعة على عاتقه لا محالة

والنقطة الجوهرية فى موضوعنا هذا الكلام على فلسفة الجمال فكثير من شباننا لا يريدون التزوج إلا من ذات خد أثيل أكسبه البهاء رونقاً وجمالا وفم صغر حجمه أشرب بالحمرة اللامعة وقوام معتدل وعنق كعنق رئم وعيون دعجاء وتناسب فى التركيب وتعادل فى التكوين إلى غير ذلك من الأوصاف الملائمة للمشارب

وحقيقى كل شىء جميل تصبو إليه النفس وتميل إليه كل الميل ولكن لو كان البحث يدور حول جمال الصفات وجمال الطباع لكان ذلك أفضل وإذا تصورت أهمية الزواج لجعلته فى الصف الأول من العناية وآخر ما أقول لا يحسن حالك إلا بزوجة صالحة

بين اليأس والرجاء

بين هذين النقيضين يضطرب ميزان اللب ويتيه جوهر العقل فى أساليب اليأس المحزنة وتباشير الرجاء السارة

بين هذين الضدين تظهر آثار الابتهاج أو توجد أسباب الآلام فيسعد إنسان ويشقى آخر فترى نصراء السابق فى فرح والشامتين باللاحق فى هرج ومرج ولهذا يرتل للفريق الأول آيات التهانى ويؤسف لما حل بالفريق الثانى من خيبة وفشل

يعود الطبيب مريضه فأن لم يأت بعد موعده المحتم ولم تملأ صحائف كتابه تطمئن نفسه ويتحقق رجاؤه فى إبلاله وإن بلغت حياته غايتها وحان له أن يغادر نعيم الدنيا وشقاءها يقوم من عنده ولسان حاله ينشد قول عنترة العبسى

يقول لك الطبيب دواك عندى
إذا ما جس كفك والذراعا
ولو عرف الطبيب دواء داء
يرد الموت ماقاسى النزاعا

ويرجع يائساً وقد أخفق فى طبه ولم تجد عقاقيره نفعاً والدواء يخطىء مرة ويصيب وإذا ما أقبلت المنية بخيلها ورجلها وسددت سهامها وجدت ذلك الطبيب الذى يعلل كم

بالشفاء ويعدكم بالبرء من الداء يردد قول الشاعر

وإذا المنية أنشبت أظفارها

ألفيت كل تميمة لا تنفع

بين اليأس والرجاء ينشر الأمل شراعه كالشمس تسطع في كبد السماء أو يخيم القنوط على الألباب فيطفىء نور أمانيها فتخمد ثورتها ويخيب رجاؤها فيلازمها الحزن لزاماً ويسد عليها طرائقها ويملك ملاكها فيضيع هناءها

بين هذين العاملين يقف الجندى فى ساحة الصدام فيدفعه الأمل بالفوز إلى الأمام ويؤخره اليأس إلى الوراء خطوات واسعات وهو لا يدرى هل سيحوز الانتصار فتحرز بلاده بأ بلائه الحسن وانتصاره مجداً يجعل لها قيمة الشرفاء بين الدولات أو سيقهر فيصبح وليس فى مقدوره أن يدرأ عنها الخطوب فلما لم يجد للرجاء سبيلا أخذته دهشة اليائسين وسكرة المخذولين فألقى بحسامه الى الأرض فكان نصيب دولته ما أصابه من خزى وعار ولله فى خلقه شؤون

كذلك كل من أراد إبداع عمل أو أقدم على شىء ثم

لم يصل الى الغرض الذى يرضاه فكبا جواد عزمه وخبا زناد ثباته كان من أمره ما كان من أمر المشدوه يلقى أقوالا تذهب جفاء ويعد وعودا تذهب هباء ولو شئنا أن نصلح أمره أو نؤاخذه على جريرته لعاقبناه على ضعف إرادته وتردده اللهم إلا إذا كان مرغما على ذلك اعتباطا فأن من الأمور مالا حيلة للانسان فيها فقد يثبت أمام الحادثات كالطود لا تقوى عليه المؤثرات ولا تزعزه المعاول ويستقبل كل شيء بثغر باسم وجنان ثابت وقدم راسخة ثم لا يصل بعد ذلك إلى غايته وقد قطع عليه خط الرجعة فصار كاسف البال أسفا

إن اليأس من أدراك الغايات قبل ولوج أبوابها علة هذا المجتمع فتكون قد عقدت النية على أمر ما وصممت العزيمة ثم لا تلبث أن تنقلب على عقبيك موليا وجهك غير القبلة التى استقبلتها والغاية المثلى التى قصدتها فانثنيت تندب حظك النكد وبختك العاثر

على أن ضعف الأرادة داء وخيم ومصاب جلل يجر

وراءه محنًا دونها ما يحمله رضوى من ثقال الحجارة وناهيك من خلة إذا تتبعها المرء لا يرجى نفعه ولا تؤمل منفعته والدليل واضح بنفسه وضوح الشمس فى رابعة النهار وأقرب برهان نتخذه حيال هذه المسألة ما يحل بالأمم التي يقوم بشؤونها السياسية وأعمالها الأدارية فئة بلغت من ضعف الأرادة مبلغًا أفسد مستقبلها وأباد عزها وسؤددها وأمات حريتها واستقلالها وبعبارة أخرى أقرب الى العقل لو بحثت عن تطور أى أمة معينة زالت شوكتها ودالت سعادتها وبحثت عن سر سقوطها وضياع كرامتها لاتضح لك أن ضعف الأرادة أول عامل من عوامل سقوطها وانهدام مجدها

ولو فرضنا أو سلمنا جدلا بأنك قوى الأرادة ثم لم تنجح فى مسعاك فليس إذ ذاك لأحد عليك حق لأنه إذا حم القضاء فلا نجاح ولا رجاء وأنا لا ألومك إن عجزت عن إدراك أمانيك بالقضاء والقدر ولا أصوب إليك سهام التقريع لأن الدهر خانك ولكن أوجه إليك كل ملام إذا كنت فى زمرة القادرين فأصبحت فى عداد اليائسين .

بل يحزنني أن تكون الطريق واسعة أمامك فلما خطوت الخطوة الأولى وقفت مترددا بين اليأس والرجاء وظل بك الوقوف حتى مضى الوقت وانقضى وهو كالسيف إن لم تقطعه قطعك فكان ما كان منك حيث لا ينفع الندم

اليأس من حياة المريض الواقف على أبواب الأبدية واليأس من عمل قمت به على أحسن حال ثم لم تكافأ عليه بالنجاح المقصود سيان وفى هذه الحالة عند إذرافنا الدموع على الراحل المودع نذرف بجوارها دموعا حارة على آمالك الدارسة

يسألونك علام هذا اليأس ولو علموا أنهم أخطأوا فى عدم تعضيدك لأشفقوا عليك وبكوا رحمة بك فاحرص على حياتك حرص البخيل على متاعه ولا يحزنك ما وصلت إليه حالتك فأن ما لا تدركه اليوم ستحصله غدا وإن كانت تلك النار المضطرمة فى فؤادك المتأججة فى أحشائك للبانة لا تدركها فاصبر فأن الصبر أحرى بك

عجبت لك إذا مسك الشر كنت جزوعا وإذا مسك

الخير كنت منوعا تضطرب من لاشىء وتستحكم عندك حلقات اليأس لأى سبب مهما كان تافها

كأنى بك تخشى شماتة الشامتين وتحسب لغلوائهم ألف حساب فدعهم فى غيهم واتركهم وشأنهم فسترى الذى فرح لأوصابك يشرب يوما ما من الكأس التى تجرعتها

والمرء ياهذا فى حالى بؤسه ونعيمه بين اثنين شامت وحسود فان كنت فى سعة من العيش أو أتيحت لك نعمة حام حولها الحاسدون وإن زالت كثر الشامتون وعلى كلا الحالين أولئك قوم لايعقلون فلا تحفل بأمرهم ولا تيأس من رحمة الله إنه لاييأس من رحمته إلا القوم الكافرون

الاحساس

الاحساس أورق الشعور من السمات التى تنبت فى النفس الجديرة بالاحترام نبات العود فى الأرض الخصبة وتختلط بها اختلاط الماء بالصهباء وليس له درس خاص لاستيعاب مسائله ومذاكرة بنوده ونقطه ولا علم يشتمل على أبوابه وأقسامه وإنما إذا توفرت فى المرء المبادىء الحسنة والصفات الحميدة قيل إنه ذو نفس أبية وإحساس راق وعد

فى كرام الناس وأفاضلهم

ولعمر أبيك ما العلم بنافعة أصوله بدونه ولا الأدب بشافعة مناحيه بغيره ولذلك فالأحساس فى طليعة الكمالات ومكارم الأخلاق التى تتكون الشعوب بها وتلتئم الأمم وبدونها تتقوض أركانها وتنهار دعائمها

ليت شعرى أى فرق بين الانسان المتمدن وبين الحيوان المفترس إذا تشابها أو كان الأول على شاكلة الثانى حيث يماثله فى توحشه ويجاريه فى فظاعته والحيوان إنما يستعمل قوته للفتك بالورى لاحتياجه إلى القوت ولا سبيل للأنسان الذى يجهز على أخيه الأنسان غير خلوه من الشعور وموت وجدانه وليس ثمة تفضيل بينهما إلا إذا كان للأنسان مميزات خاصة تفرق بين طباعه وطباع الحيوان

وإن كان هناك فضل للأحساس فلأن الضمير الحى نتيجة من نتائجه وثمرة من ثماره وما دام المرء ضمير يحاسبه على كل صغيرة وكبيرة فدعه وشأنه وكن على ثقة تامة أنه سيكون خير المصلحين وفى مقدمة الفضلاء ولو قدرنا أن

النفس الأمارة بالسوء أوعزت اليه أن يشق عصا الطاعة لارتكاب جريمة وقف هذا الضمير فى وجهه وقفة الفارس الصؤول فى حومة الوغى ورده عن عزمه وإذا هفا هفوة فأنه لا ينجو من توبيخ الضمير له فلا يعود لعمل شيء يخالف الواجب والأنسانية

ولقد تنظمت القوانين وبنيت السجون لأرهاب المجرمين فهل خلت السجون من الجناة وهل انتبذ السوء مكاناً قصيا — كلا فأن النفوس الشريرة لا يمنعها صرامة الأحكام ولا يوقفها عند حدها قساوة الحكام ما دامت لم تترب تربية أدبية ولم يسلس قيادها للشعور والأحساس ولو تعود الناس الأخلاق الفاضلة لخلت السجون على كثرتها وتعددها كما وأنه بمقدار بث روح الفضيلة تحطيم لكيان الرذيلة وبمقدار نشر المعارف تنكيس لأعلام الأجرام

ولامشاحة فى أن المروءة لايعرف مكانها إلا إذا عرف الأحساس فمتى فقد لم نجد لها أثراً ومتى آضنت المروءات فقل على الدنيا العفاء

والرأى لى أن أقول الشريف ذو إحساس لأنه قدر الشرف حق قدره فسبر عواطفه بمسبار العفة وميزان الشرف والكريم ذو إحساس لأن المال لم يعم بصيرته فأنعم به على الضعفاء وتفضل به على المساكين والفقراء والشجاع ذو إحساس لأنه لو لم يكن له ضمير يحاسبه لولى الأدبار والحاكم العادل ذو إحساس لأنه لو ألف الظلم اضطربت بلاده وساء حال أمته التى ائتمنته على قانونها ليقتص من مفسديها والمتواضع ذو إحساس لأنه يرى أن الكبر مذموم ويشعر بأنه ينافى الآداب والفضائل

وأكبر أثر للاحساس — الحنان — وإن هو إلا إغاثة الملهوف والأخذ بيد من نكبه الدهر بحوادثه فناء بكلكلها وارتطم فى بحر مصائبها — يدق الأحساس على أوتار القلب بأنغام الحنان فتهز فى النفس أريحية الكرم لتخفيف آلام هذا المنكود والبائسون أولى الناس بالشفقة فالبؤس جهنم الدنيا التى لا يخبو أوارها

وفوق ذلك قد يحترم الغنى لكثرة ماله ووفرة أمواله

والرئيس لسلطته ونفوذه والوالى إذا خيف بطشه وسلطانه فكأن لهذا الاحترام تعليلا أو يكون مسوغه الخوف والملق وليس هذا فى نظرى احتراماً قطعياً وأما إذا كان الاحترام بدافع الأحساس فهو الاحترام بعينه

وعلى الجملة لو أردنا أن نفهم كيف تكون السعادة التى عز مطلبها لوجدنا أنها كامنة تحت لفظة الأحساس كمون النار فى العود والذهب الأبريز فى باطن الأرض فياليتنا نقدر الأحساس حق قدره وياليت لنا جميعاً ضمائر حية لكنت أقول قد أصبحنا من السعداء وصرنا خير أمة أخرجت للناس؟

العواطف القلبية

يقولون المرء بأصغريه قلبه ولسانه وعلى ذلك فقيمة الفتى ليست باعتدال قوامه وجمال هيئته ولا بملبسه ورشاقة ثيابه ورب رجل طوحت به يد المقادير فى مهاوى الفقر فتزدريه لعدم انتظام هندامه وهو معدود فى الفطاحل له قلب حافظ ولسان لافظ لاينطق إلا بآيات بينات وتأصلت

فى نفسه العواطف الشريفة فلا يغشى مجلساً إلا وقد حفظ لنفسه قيمتها بالرغم من رثاثة أسماله وليس الفقر فى الناس عيباً وما هو والغنى إلا عرضان يتنازعان بعضهما البقاء وكم من اناس فرى الأملاق جلدهم ومزقت الفاقة ثياب راحتهم سنين طوالا أصبحوا أغنياء يملكون القصور المشيدة والخيل المطهمة والصافنات الجياد وقد غمروا بخيرات جزيلة ونعم كثيرة وكم من أقوام كانوا إذا أوماوا إيماءة تبعهم المال وإذا ساروا يمنة عرفوا بثروتهم الواسعة وضياعهم الهائلة وإذا ساروا يسرة لم ينكر الناس جاههم وإذا عدّوا ما يمتلكونه يضيق بهم العد قد صاروا فى حالة يرثى لها العدو وأصبحوا وثروتهم اسما على غير مسمى وطللا بالياً بعد عين ثابتة

ولا امتراء فى أن القلب النقى عنوان من عناوين العواطف الشريفة التى لها أثر خالد فى كثير من الشؤون والتى لولاها لسجل الشقاء على كثير من الورى ولاستحكمت حلقات الأسى عندهم فى غدواتهم وروحاتهم

العاطفة القلبية لا يقدرها إلا الشرفاء ولا تؤثر الا فى

النفس الحساسة التى سمت فأحجمت عن الغـدر وحافظت على سمعتها الشريفة ونفت عنها غبار الرذائل التى لا ينـدفع تحت تيارها إلا كل امرىء مغلق القلب وكفانا تلقيبه بأنه خال من العواطف

ولا تعترض أيها القارىء الـكريم فربما يتسرب إلى ذهنك الوقاد اننى اتكلم عن الهوى وربما تقول أن من نتائج هذه العواطف أمرا يحمر له وجه الأنسانية خجلا إلا أننى أقول أن الأمر حين إذ ذاك يكون قد خرج عن دائرتها فأصبح فى حكم غير حكمها والعواطف براء من كل ما يشين أو من كل ما من شأنه خدش الشرف وضياع العفاف

تتلاعب العواطف بالقلوب تلاعب الأمواج بالسفن السائرة فى عرض المحيط وتأثيرها لا يختلف فيه اثنان فقد تعجم الحادثات لسان الفتى وقد يجبن فى خوض غمرات المعارك وربما يكتم أسراره ولكنه لا يستطيع الصمت عند تقدير هـذه العواطف فتراه أول من يفرق المواكب ذات بن ونات الشمال ومن ذا الذى يقوى على كتمان عواطفه

وقد شهدت عليه عدول من المدامع والأسقام

لبيك أيها القلب فاحكم بما تشاء بدون أن نقاومك واختر لنا ما تريد من نحول وذبول ما دمنا فى معزل عن الغدر والخيانة

ليتك أيتها العواطف ثابتة لا تصلين القلوب بحبل متين ثم تفرقين بينها وهى كالزجاج لا يمكن رأبه إذا انصدع ولا جبره اذا كسر — فتراها تهيم فى واديك وتهتز لك طربا ثم تكون النتيجة فراقاً تاماً أو مصاباً لا حاجة بنا إلى إيضاحه وتفسيره

وإن كان من أسبابها مناجاة القمر ومصاحبته فى أوضاعه المختلفة من هلال ثم إلى بدر إلى أن يعود كما بدا إلا أنها مصدر من مصادر الحياة الراقية فالمرء الذى لا قلب له جدير بأن يحفر لنفسه رمساً بيده حيث يقبر فيه إلى يوم يبعثون . .

على أن القلوب متى كانت طاهرة بالمعنى الصحيح يكون الوجدان ذا صحائف بيض والعواطف شريفة بلا نزاع

فتكون الحياة فى أحسن عيشة وأرغدها وأتم نعمة وأسعدها وعلى عكس ذلك يكون البلاء . وينشأ الوبال والشقاء م؟ .

هل من صديق

هل من صديق مخلص الأخلاص كله أراه يعيننى على الشدائد ويدرأ عنى كيد الخاطئين ويأخذ بيدى إلى مواطن الفضل لايأذينى بجهله ولا يضرنى بلؤمه

هل من صديق ملىء حكمة ووقاراً أستدل بنبراس رأيه وأستضىء بمشكاة عقله الذكى وقريحته الوقادة لا أنفض كفى منه عند الحاجة إليه ؟

هذان سؤالان طرحتهما أمامى على بساط البحث وبحثت بأسبابهما فى ميادين الخيال الواسعة الأطراف منقباً عن هذا الصديق وجمعت شتات أفكارى وأجهدت نفسى لعلى أعثر عليه فلم أجد صديقاً واحداً أؤمل فى مصاحبته الخير أو أجد فى ارتباطى معه بعرى الأخاء منفعة وإن كان المرء لايعرف إلا بأخوانه .

ركبت سيساء التفكير ثانية مؤملا أن أصل إلى ضالتى

المنشودة أو أوفق إلى حل شاف لهذين السؤالين فكلما قرأت أغراض الناس فى سطور طبائعهم أشكل الأمر وازداد إعجازاً وأين ذلك الصديق الذى ننشده هل هو الجاهل وعدو عاقل خير منه وأسلم جانباً أم الغنى وهو يرى أنه فوق مرتبة الأنسان كأنه لم يخلق من حمأ ولم ينشأ من صلصال أم الذى اتخذ على نفسه عهداً أن يكون صادق الوعد فلما أدبرت الدنيا وفرت من وجهك عبث بعهدك عبث الوليد بمستصغر التماثيل وعند الشدائد تعرف الأخوان.

كأن المروءة تحتضر والصداقة لفظ وضع فى اللغات خطأ وما رأيك فى قوم يطنبون فى مدحك حين الحاجة اليك وأكبادهم صادئة فيطلقون عليك قنابل هجومهم بدون مسوغ ويغتابونك بدون سبب يذكر

يؤلمنى جداً أن أرى فى طبقات العالم ذلك النفر الذى يلبس ثوبا قشيباً من المداهنة والرياء صباح مساء ومساء صباح وكلما مزقت أستار هذا الثوب بدلوه بغيره حتى يستمر نهر كرمك جارياً عليهم ولو حبست عنهم ما أغدقت

لانفضوا من حولك وصداقة هذا شأنها لاقيمة لها فى نظرى وخير منها الوحدة والانفراد

احترت والله بين صديق يغش ورفيق يخون وصاحب يتيه علينا بكبريائه وآخر أعمى المال بصيرته أما أولئك اللؤماء الذين تشمئز الأنسانية منهم فهم شر من هؤلاء

عجباً هل ذهب الوفاء إلى حيث ذهب الأوائل فى مرقد لايقوم منه أم أصبح الأخلاص نسياً منسياً

ألاقف أيها القلم عند حدك فقد وجدت صديقاً صدوقا آمن جانبه وأحلى جيد الذاكرة بحسن نصائحه وإرشاداته لاأخشى منه ضيما ولارهقاً ولاهو ممن قال فيهم الشاعر

إحذر عدوك مرة   واحذر صديقك ألف مرة
فلربما انقلب الصديـ   ـق وكان أعلم بالمضرة

لاتعجب من أمر هذا الصديق فما هو من فصيلة الأنسان ولم يتوصل المستكشفون بعد إلى عالم آخر خلا وطابه من الشرور وإنما هو صديق أجله إجلالى للعظماء

وأحترمه احترامى للفضيلة

أتدرى من هو ؟ ـ هو (الكتاب) الذى ترى فيه الحكم البليغة والعظات البينات والشذور العلمية والطرف الأدبية والمقاصد الحيوية والاجتماعيـة فتنكشف أمامك الأسرار الكونية وتعرف كيف تكون الحياة الحقة

الكتاب هو ذلك الأستاذ الذى يسمو بك إلى مستوى الملائـكة الأطهار ويعلو بك إلى حيث تشاء من الدرجات الرفيعة فنعم الصديق ونعم الرفيق ؟

جمال الطبيعة

خرجت مع جملة من سجرائى عصر يوم من أيام الربيع معتدل الطقس فانتحينا ناحية بستان اعتدنا أن نذهب إليه طلبا لترويح النفس والرياضة شرط لازم لتجديد القوى وما تكامل عقدنا واستقر بنا الجلوس حتى أخذت الرياح تنوع[١] الأشجار تنويعاً وصارت أوراقها تصطفق فأرسلت بنظرى إلى ما حولى فأذا الأرض مفروشـة ببساط سندسى من

---

(١) تهزها يمنة ويسرة

المزروعات أكسبته الخضرة رونقاً وبهاء والأزهار مختلف ألوانها ما بين زمردها وياقوتها ومرجانها وعلى رأسها أميرها الورد وهو يبتسم وقد عطر المتنزه برائحته الذكية واختلب الأفئدة بجمال منظره البديع

وكان على مقربة منا نهر النيل تجرى مياهه غدواً ورواحا ولم ألبث غير قليل حتى تحولت الشمس الى قرص ذهبي واستحال بياضها الناصع إلى صفرة فاقعة ثم أخذت تصغر شيئاً فشيئاً حتى توارت عن الأبصار فانصرف إخوانى فرحين وجلست وحدى وقد أرخيت العنان للوجدان يسبح حيث شاء ويفكر حسبما يريد وللآلام دافع يأخذ بتلابيب الأنسان كلما كان منفرداً لا جليس يشغله عنها أو يقف بينه وبينها كستر منيع يحميه منها ويقيه من شدتها

طال إطراقى ومر بخلدي بيت أبى العلاء الشاعر المعروف بدقة شعره ومتانة لفظه ورقة معانيه

غير مجد فى ملتى واعتقادى نوح باك ولا ترنم شادى

كأنه يقول سيان عندى النوح والترنم والحزن والسرور

والغبطة والألم فهى من العوارض التى لابد من أن تصادف من تنسم نسيم الحياة فمن ابتهاج ينعش الصدور إلى لوعة تذهب بالأفئدة وتشق المرائر

فأقللت من غلوائى وأهبت بطرفى إلى السماء فرأيت القمر قد ظهر وحوله النجوم كالقائد النبيل يحيط به ثلة من الجند فأثر فى جماله وناجيته إذ ليس لى ساعتئذ سمير سواه ولطالما كان أنيسى فى اكثر ليالى أمت إليه بما يكنه ضميرى وما يخفيه وجدانى

أيها القمر الذى يشبهون به الغيد الحسان والأتراب الناعمات الأطراف وسمير العاشق فى وحدته والبائس فى بلواه هل لك أن تقف بينى وبين آلامى فتخفف وطأتها وتصد تيارها وكيف يتسنى لك ذلك وأنت مخلوق لاحول لك ولا طول

أيها القمر — سبحت فى القبة الزرقاء وعلوت علواً كبيراً ومع ذلك لاقدرة لك على شىء فلماذا عظمك القدماء وبأى وسيلة ملئت الدواوين باسمك ومثلت التشبيهات

البديعة بك ـ نعم لم يعبدك القدماء إلا ضلالا منهم بك ولم يعظموا مقدارك إلا لحسن منظرك وجمال تكوينك

على أن الطبيعة لفظة يقصد بها فى عرف الكثيرين الكائنات كالنباتات والبحار والشمس والقمر والأرض ومن عليها والسماء وما فيها وجل بفكرك جولة فى ميدان الكون على تباين أجزائه واختلاف أنواعه تجده من الجمال بمكان عظيم

والجمال تنسيق منتظم لشىء خلق على أحسن صورة وكون على أشكال عجيبة وإنك لو رأيت لصانع من الصناع عملا متقناً قلت إن هذا العمل جميل ولو رأيت ثوباً مزركشاً أقررت بجماله توا أليس ماتراه من دقيق صنع الله جميلا أيضاً بل هو الذي يجب أن نلقبه بالجمال الحقيقى ـ انظر إلى السماء كيف رفعها وزينها بالنجوم التى تتلألأ فيها وتسبح فى أديمها كالفلك تجرى فى البحر كالأعلام

وتأمل كيف خلق الأرض وأنبت فيها الزرع والنخيل من جنات وأعناب صنوان وغير صنوان وكيف جعل فيها رواسى شامخة وجبال شاهقة

ولاشك أن منظر السماء فى يوم رائق أبهج منظر ومشهد الأزهار ألذ مشهد لمن له عين سليمة وعلى الجملة كل ما أنشأه الله غاية فى الأبداع والأتقان وليس لمن له مسكة من العقل أووعى الأشياء بقلب سليم شك فى ذلك فالكائنات مابين أنهار جارية وأرض ذات فجاج وسماء ذات أبراج وشمس ذات نور وهاج دليل على الخالق جلت قدرته وتنزهت صفاته عن أن يماثله أحد فتبارك الله أحسن الخالقين ؟

صحيفة من الماضى

عرفتها طيبة القلب نقية السريرة فارتضعت لبان وفائها وسموت إلى قلبها فلم تضن على به وهكذا صارت شغلى الشاغل وأصبح لقياها أمنيتى التى مابعدها أمنية حتى ماعدت أستطيع أن أفارقها لحظة من اللحظات فأن بعدت عنى يوماً حسبته عاماً وقد بعد الكرى عن أجفانى وصحبنى القمر أتوقع مراسم جبينها الوضاء منعكسة على وجهه أو ينقل لها عنى مالاقاه منى . بينى وبينها صلة لاتنفك عروتها ولاتحل عقدتها وقاسمتنى حباً تتمثل فيه الطهارة بأجمل أسلوب ومع

اغتباطى بها وسرورى من مؤانستها كنت مرغماً أن أرحل الى بلد آخر طلباً للارتزاق محتذياً حذو ابن ذريق صاحب القصيدة المشهورة التى يقول فى مطلعها

لا تعذليه فأن العذل يولعه
قد قلت حقاً ولـكن ليس يسمعه
جاوزت فى عذله حداً أضر به
من حيث قدرت أن النصح ينفعه

ولا تسل عن مقـدار ما كان يلم بى من الأسى عند ذكراها وكثيراً ما كان يهيج بصدرى باعث الوجد فكنت أعمد الى القلم والقرطاس فأحرر لها من الرسائل مالو جمعته لـكان أنموذجاً من نماذج الحب الشريف بينما كان ماتمليه وجدانها على الطروس مثال الطهر والعفاف

ما أجمل أسلوبها وما أرق عواطفها لقد كنت أقرأ كتبها مراراً مع قلة كلماتها واختصار عباراتها . . . .

قال ذلك ثم قطع حديثه بغتة وتغيرت ملامحه ولم ينطق بعد ببنت شفة فأخذنى حب الاستفسار عن حالته أن أسأله لاسيما وهو

صديق أحبه كشخصى وأعتبره كذاتى لافرق بينى وبينه فأجاب وهو يتململ من الضجر

كنت أنكر على الناس الحب فأذا بى فى مقدمتهم ولكن كان هواى عذريا مزجته بشرف النفس وعندى أن ساعة من سويعاته خير من خزائن الأرض وقد اندثرت آمالى أيها الصديق إذ بعد لأى كشف أمرنا امام القاصى والدانى واطلع على أسرارنا من يترقب حركاتنا فاجتهد المتطفلون على موائد الهوى ففرقوا بيننا

عهدى بها مخلصة فلم أصدق ماعزى إلىّ عنها ولكنها صدقت ماتقل لها عنى فافترقنا إلى أن شعرت بظلمها ولم تشأ إلا أن تكون عادلة ذلك لأن قلوب العذارى أميل إلى الرقة والتسامح . . . . طلبت يدها فامتنع قومها راغبين أن أسلك طريقاً غير طريقها من قريباتها ممن هن فى نظرهم أجدر بالأحقية فأبيت إلاها وأصروا على رأيهم فغلبت على أمرى وفارقتها وقد صفرت كفى منها وإن كانت مملوءة بفؤادها .

حسبت إن الرواية ستنتهى عند هذا الحد ولـكن فصولها ازدادت فصلا وذلك أن من عرض على أمرها ومن أصروا على تزويجي منها عقد عقدها وتم أمرها على أحسن حال فأظهروا ارتياحهم لما كنت مصمماعليه بعد أن أصابنى من الامتهان ما أصابنى

ولـكن حالت الظروف بينى وبينها ولم أكن إلامطيعاً لمن لاتسعنى مخالفته

قال ذلك والعبرات تـكاد تخنقه وقـد أثر ذلك فى صحته فهزل جسمه ولم أعد لأراه ولم أدر ماصنع الله بهولا أذكر غير كلمته الأخيرة ليتنى أسلوها وليتها تنسانى

تلك قصة سردتها على علاتها ونشرتها كأصلها لعل فيها تفكهة للقارئين وإنها وإن لم تـكن من الضروريات فليست على كل حال من سقط المتاع رد الله غربة هذا الصديق وتأوبه بالعافية ؟

الشبح المرعب

ياهوله تصطك الأسنان رعباً منـه وتهلع الأفئـدة

وتضطرب القلوب وجلا من خيفته وتصفر الوجوه حين تذكاره كأنه البلاء الأصفر أو الموت الأحمر

هو الوحش الكاسر الذى لا يرحم الانسان ولا يتوجع لعويله والحيوان الضارى الذى يفتك بالغادى والسارى قطع النهار ودلف الليل بل هو أشد قسوة وأعظم بطشاً

كنت أسمع عنه فى صغرى وأتلقى حوادثه المتنوعة بأشكال غريبة لم يصل إلى تنميق أمثالها هوميروس شاعر اليونان ولا أمهر الروائيين وأبرع الخياليين فكان مابهامن الأمتاع والتشويق يجعلنى أنصت لسماعها وأنتبه لها انتباهاً تاما فخلدت فى نفسى أثراً طالما كان يساورنى إذا أرخى الظلام ذيوله أو مررت فى طريق انقطع منه السابلة فلما جاء الوقت الذى وجب فيه استخدام العقل تساءلت عنه فلم أجده وبحثت عنه فلم أعثر عليه وراجعت تلك الاقاصيص فتبين لى أنها عارية عن الصحة ومن المبتكرات التى لا يسلم العقل بصحتها وعلمت أنه من الاوهام التى يرجع أصلها

إلى الجهل ولم تنتشر هذا الانتشار الهائل إلا لضعف اليقين وجمود القرائح

ولو كان لى نصيحة أذكرها للخاصة والعامة فهى إرشاد السيدات ومن بأيديهن تعهد أبنائنا الأحداث والسهر على مصالحهم أن يقلعن عن تلك العادة المضرة التى لا تخلو منها دار تقريباً وهى تخويف النشء بكلمات تسبب لهم الرعب وأوصاف تشابه الشبح المرعب تشابها تاماً فيتسرب إلى نفوسهم الجبن منذ نعومة الأظفار ويسترسلون فيه ومن شب على شىء شاب عليه

والشبح المرعب كغيره من الخرافات التى درأها العلم وهدّم كيانها . ولقد كان القدماء يعتقدون فى بعضها فعبد اليونان آلهة متعددة وعبد الهنود الشمس وسجد الفارسيون للنار واعتقد غيرهم فى ألوهية بعض الحيوانات وذهب فريق آخر إلى عبادة أصنام نحتوها بأيديهم أزماناً متداولة وحقباً متتالية

والظاهر أن الجهل الذى حدا بالناس أن يعتقدوا

أن الأرض محمولة على قرن ثور حدا بهم أيضاً أن يعتبروا العرافين والسحرة فى مقدمة الناس نبلا وفضلا ولقد غمى على كثير فصاروا يعتقدون فى الموتى اعتقاد المؤمن بالله وما عتموا أن يبتهلوا إليهم بالدعاء ويرجوهم المعونة ويسألوهم النجدة كما لو سألوا الرحمن جل وعلا وفى الحقيقة أن (أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون) وقد فضلهم المولى على كثير من عباده ولكن الدعاء خاص بالله وحده يعطى من يشاء ويمنع من يريد

خلق الله لنا عقلا مهيمناً وحثنا على استعماله بدقة وحكمة وأرشدنا الى الخير وحذرنا من الشرور والآثام فعلينا أن لانتتبع خطوات الشيطان وأن نأتمر بأوامره سبحانه وتعالى فما هذه الدنيا إلا كسحابة صيف ثم تنقشع وما مقرنا فيها ألا كضيف لابد ان يرحل إن عاجلا أو آجلا

ولو شئت أن اذكر طرفا من نقد عاداتنا وما ألاحظه من الشؤون التى لا يسلم العقل بصحتها لذكرت كثيراً ومع

ذلك فهى لا تخفى على أحـد . ولقـد دارت الخرافات فى دائرة واسعة فى المآكل والمشارب والعادات حتي إذا مرض المريض وعلى الخصوص من النسـاء الجاهلات عزى ذلك الى غضب (الأسياد) وكلف الرجل ما لا يطيق لعمـل (زار) ليتم شفاء من هى مـكفل بأمرها وقائم بشؤونها

ولقـد سمعت غير مرة أن فلانة عليها من (الأسياد الشامى والمغربى والسودانى والأسكندرى والعربى) كأن أجسامهن مرتع (للعفاريت) فتتخذ لكل لبوساً مخصوصاً وفى ذلك من النفقات ما لا طائل تحته وكيف يجتمع أفريقى مع أسيوى فى جسم واحد بل كيف يطيب المقام لهذا العدد الجم فى موطن واحد فـكأنهن قبور مع صغر حيزها تزاحم فيهـا القصاد ممـن اختاروا بطن الأرض بدلا من طبقتها الظاهرة

ولا يفوتنى أن أعود إلى شرح جهل الأمهات اللواتى يربين أبناءهن على الخوف والذعر منذ بدء حياتهم والشجاعة على العموم من مقتضيات الوجود ومن ذا الذى يرضى بأن

يكون جباناً يزدري وحقيراً يمتهن

فمتى تفيق الأمة من هذه الغفلات وينقشع عن لبها تلك الخرافات فلا نعود نسمع من هـذا الباطـل شيئاً ولا يقص على أسماع الأحـداث أقاصيص الشبح المرعب وأن لا يرهبوا بالخيالات المخيفة والألفاظ المزعجة

المجد

لو أتيح لأى مخلوق ثروة قارون أو ملك من الضياع ما يضيق به الحصر ثم خلا عن عرى المجـد ولم يدر ما هو كان هملا يدخل فى هـذه الدنيا كبهيمة الأنعام ويخرج منها لا يرثى له أحد ومثـله وهو يرفل فى الديباج كجبان يملك سيفاً من ذهب مرصع باللآلىء منضد بالجواهر ولا يعلم كيف يخوض غمرات الحرب ولا كيف يستعمـل ذلك السيف

وعادة السيف أن يزهى بجوهره
وليس يعمل إلا فى يدى بطل

والماجد من يعفر صبوة الجواد ولا يتوانى عن خدمة

بلاده ولا يقصر عن إدراك المعالى ومن لا تفوته فرصة إذا سنحت والفرص كما علمت إذا ضاعت أصبحت غصصاً

ومن العار أن تكون غنياً ثم لا تبنى لذكراك صرحا من المجد (والذكر للأنسان عمر ثانى) . أشفقت عليك لو كنت فقيراً فكم ندب وقف به فقره عن بلوغ درجات المجد اللائقة بذكائه وفطنته وكم من ناشىء إذا تعهدنه بالمعنى الصحيح كان لقومه خير المرشدين ولوطنه أستاذ المصلحين ولكن الفقر أتلف مستقبله وحرم عشيرته من نبوغه . وعذرتك لو لم تضيع ثروتك فى غير العلى

الغنى يمكنه أن يكون ماجداً لو صرف بعض أمواله فى وجوه البر فذلكم حاتم قد جاوز مجده السماكين وتردد ذكر أياديه البيضاء فى الخافقين منذ عهد الجاهلية إلى وقتنا هذا . وتستطيع أن تكون ماجداً لو حذوت حذو العظماء أو تتبعت آثار مشاهير الرجال فشابهتهم فى أعمالهم وجاريتهم فى كل شؤونهم وحذار أن تطلب الشهرة من غير أبوابها فتستكتب الناس لتدعى الأدب وتتظاهر بالعظمة

بيد أنك لست من فرسانها أو بالغنى حيث لا تملك شروى نقير فأن سقوطك حين ذلك يكون كبيراً هائلا وأما تلك الأحلام التى تطرحك فى لجج الخيال لا قيمة لها إلا إذا كنت ثابت العزم ذكى الفؤاد وكثيراً مايو د الأنسان أن يكون من الذين إذا ذكر المجد ذكرت أسماؤهم أو تليت صفحته ضربت بهمتهم الأمثال فاذا خلا لنفسه قال ياليت لى مجد بطل مقدونيا ومقدرة جوهر وعظمة رمسيس وشهرة خالد وما المجد مجموع أمانى تذروها الرياح أو أضغاث أحلام إذا توسطت الغزالة كبد السماء لم يبق لها أثر ولا هو لقمة سائغة لا تتطلب منك إلا ان تمد يدك لازدرادها بل هو مطلب صعب لا يدنو منه ضعاف القلوب ولا يقتحم لججه ويسبر غوره إلا من ركب متن العلى وداوم على طلب الرقى حساً ومعنى

لا تحسب المجد تمراً أنت آكله

لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

وللمجد علاقة مع كل شأن من شؤوننا الاجتماعية التى

تشعر بمكرمة أو تحض على فضيلة أو تدل على صيانة الشرف وهو فى الحقيقة نتيجة الجد وثمرة الاجتهاد وربما يقسمه الاجتماعيون إلى موروث ومكتسب فسابقهما وإن اطمأنت له القلوب وارتاحت له النفوس وكان بمثابة تاج عند التفاخر غير أن ثمراته من ثناء عاطر وتبجيل خاصة بمن حاكوا برده وأى فخر لوارثه مادام لم يضع أدنى حجر فى أساسه ولو كان المجد الموروث وحده يردغائلة مكروه لم تذهب سطوة الفرس سدى ولا عظمة الرومان هباء منثوراً ولكانت دولة المصريين خير دول العالمين إلى أن تغير الأرض غير الأرض . فالمجد إذاً هو المجد المكتسب فلا تقل لنا كان آبائى وكان أجدادى ولكن أرنا ما ابتنيته أنت فأن التفاخر بالأحساب والآباء والاجداد لايغنى فتيلا وقيمة المرء ما يحسنه وما يصل إليه من درجات الكمال التى يستعمل فيها جوهرتيه ويبذل فيها جهده والمجد خير ما أخرج للناس — عنوانه جلائل الأعمال ورباطة الجأش ومضاء العزيمة ومن المحال أن يصل اليه من يرتضى المشارب الرنقة

وخلاصة القول لاحياة لأمة لامجدلها ولاقيمة لنفس غير نزاعة إلى المجد ولا حرية لشعب فقد مجده وأضاع عزه وسؤدده

الطفل الحديث

ولد يبسم له ثغر المستقبل إلا إذا وقف الدهر فى وجهه وعانده زمانه ووضع لايدرى شيئاً ولايعلم من أحوال الكون أمراً وليس فى مقدورنا تقرير مصيره لأن مفتاح الغد بيد الله

ولا تعجب أيها الرجل الذى قطع من سنيه عقداً تتراوح بين الاثنين والسبع من أمر معيشته إذ يصل اليه من الرزق ما لم يصل اليك إلا بشق الأنفس فلقد كنت مثاله نائماً فى مهدك لاتستطيع القيام ولا النهوض ووجدت من يتفقد أحوالك ويتعهدك بالعناية ولكل دوره ولم تخلق عبثاً بل لتحمل أى عبء من أعباء الحياة ولهذا تعيش من كدحك وأما هو فيرزقه الله من حيث لايحتسب

ولولا فرحة لقائه يوم ميلاده ما كانت ترحة فراقه يوم

رحيله بعد أن يطرح كل هم من هموم الدنيا فالطفل وإن لم تشرق عليه إلا شمس أيام قلائل غير أن الليالى تمر سراعا فأذا به كهل وقد مضى مراحل عمره طفلا وراهقا ويافعا ثم شيخاً ولو اتصل بك أيها الأنسان أننا ١٠ سميناه باسمه الذى سينادى به إلا تخليداً لذكرى جده الذى ترك هذا العالم الفانى قبله ببضع أيام لأيقنت أن كل نعيم لامحالة زائل .

والطفولة أول عهد المرء بالدنيا بل قل إن أيامها خير أيامه لايعانى فيها أوصابا ولايشعر بآلام ولو علم ماسيصل إليه أمره أوما سيلاقيه فيها من المتاعب لطاب الأقلة ٠٠نها قبل أن يعتدبه الأجل ويتحمل فيهامن الأوزار ماسيحاسب عليه حسابا نكراً

الأطفال رجال المستقبل وستتكون منهم مجموعة الأمة وبيدهم مقاليدها فى جميع أحوالها الأدارية والفنية فأذا كنا نخلص لبلادنا لوجب علينا تربية هؤلاء النشء أحسن تربية لأن الرقى لايكون مع الجهل (وهل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون)

أنت أيها الوالد سبب وجود هذا الطفل ولا أقول لك كما قال شاعر المعرة أنت الذى جنيت عليه فاسهر على مصلحته إذ لو كان لك فائدة فى الوجود فهى لتربية أبنائك

وإننا لاننكر حبك له وعطفك عليه ولا ننكر أيضا حنانك الأبوى وكيف تبغض فلذة كبدك وقطعة قدت من جسمك فيجب إذن أن تعدّ له المعدات الكافية حتى يكون من العظماء لاسيما وهو فى بدء عمره ومن زرع الشوك لا يحصد الورد إذ لو أهملت تربيته وتركت حبله على غاربه اختلط الحابل بالنابل وآل أمره إلى حيث لاترغب ولا تميل

ولا تحتج بانك ستترك له الخيل المطهمة والضياع الواسعة ومايدريك أنها ربما تخرج من يدك ومافائدته هو مادام لم يشغل عملا يخدم به بلاده وإذا كان لا بد من ميراث تورثه إياه فورثه علما ينفعه فى سرائه وضرائه وأدبا يزين خلقه وعقلا ينهل من مناهل العرفان وفكرا لا يضل ولباسا حتى لايدنس من اللؤم عرضه

وقد وجدت أيها الطفل لاحول لك ولاطول فعسى

الله أن يهيء لنا من أمرنا رشدا فنقوم بشأنك خير قيام

ولست يابنى من الأغنياء فأترك لك من زينة الدنيا وزخرفها ما يشرح صدرك ولكنى سأبذل جهدى حتى تكون من السعداء

وأما اذا حانت منيتى وقدر الله فى لوح مقاديره أن تعبث بى يد البلى قبل شحذ ذهنك وتثقيف عقلك فأمرك إلى الله فهو الذى يتولاك برعايته ويرحمك برحمته

أيها الطفل الصغير . رزقت بك منذ أيام قلائل فصرت أكبر أبنائى لو كان قد كتب فى عالم الغيب أن أرزق بسواك ولا أخفى عليك شيئا يابنى فأنى أبغض الحياة وأهزأ بمن يتفانى حرصا على الدنيا ولكن إذا كانت الحياة قد حسنت لدى فلكى أقوم بواجبى نحوك وإذا كنت أناجيك صغيرا فأنى أبتهل الى الله جل شأنه أن يجعلك من خدام بلادك العاملين كبيرا

تلك خاطرة تمر على بال كل والد يتمنى لبنيه مستقبلا

زاهرا أحسن الله مستقبل ناشئينا وجعلهم لذويهم قرة أعين ؟

الطفل الراحل

جرت على عوادى الدهر محنة محنة فما ارتاع لها فؤادى ولا جزع قلبي وفاجأتني الأيام بمصائبها آنا بعد آن فاحتملتها بجاش رابط ومرت بى دون أن يكون لها تأثير عندى أما فاجعتى فى وحيدى محمود فلا أطيق لها احتمالا لأنه لايضر الآباء سوى موت الأبناء

ولقد كنت أظن ان الفناء مدركى قبله فصرت أرسم الطريق الموصلة إلى هنائه قبل أن ألحق بالغابرين الأولين وما كنت أدرى أن المنون ستخطفه منى على عجل وتترك لى بعد فقده الهموم والأحزان فاللهم رفقا بعبدك الخاضع ورحمة بوالد غاب نجم سروره بغياب ابنه تحت الثرى . أسفا على ذهنك الوقاد يابنى وحسرة على ذكائك النادر فلقد توقع لك عارفوك مستقبلا زاهرا وقدروا لك السعادة لما شاهدوه من بديهتك المطاوعة وعقلك الوافر مع قرب عهدك

بالدنيا وكيف لا أحزن عليك وكنت مصدر أنسى أتلهى عن الخطوب بما أسمعه منك من لفظ جميل وعبارات تزيل الأتراح وما أراه منك من الأعمال المدهشة . ما كنت أطيق البعد عنك ساعة واحدة فكيف أقدر على فراقك أبد الدهر بل يخيل إلى انك لا ترضى أن أعانى الأوصاب من أجلك وأعالج الآلام فيك فادع لى ربك أن أكون بجوارك قريبا فالحياة بعد رحيلك مرة المذاق

لهفى عليك يابنى فلم تنس أباك لحظة من اللحظات حتى فى لفظك النفس الأخير ولطالما تعلقت بأهدابى وتمسكت بأذيالى فى غدواتى وروحاتى ولا يهدأ لك بال إلا إذا كنت معى فى حلى وترحالى ولا يطيب لك طعام إلا إذا ناولته لك بيدى ولا ترتاح فى النوم إلا اذا توسدت ذراعى

عزيز على أن تتخطى إليك يد البلى ولكن ماحيلتى إذ انقضى أجلك وختمت صفحة حياتك وقدر الله فى لوح مقاديره أن يحين حينك قبل أن تكمل الثالثة من عمرك لكى تكون ورقتك بيضاء ناصعة وروحك نقية طاهرة

وغاش ذلك الطبيب الذى يقول بأن فى استطاعته إيقاف المنية إذا أنشبت أظفارها أو درء خطرها إذا ما هجمت بخيلها ورجلها فلقد عذبتك يا بنى بأعطائك جرعات الدواء على غير رغبة منك وحرمتك من كل شىء كنت إذا ما طلبته منى وأنت معافى تجدنى أطوع من بنانك فى استحضاره ولم أفعل ذلك إلا أملا فى شفائك وحرصا على بقائك بجانبي فطاش السهم وخاب الفأل وإنا لله وإنا إليه راجعون

وإنى ليؤلمنى أن ذهبوا بك إلى مقرك الأخير من غير أن أتزود منك بنظرة وأودعك الوداع النهائى عفا الله عنهم فقد زعموا أنهم يريدون بى خيرا إذ لا يرغبون أن يقع بصرى عليك وأنت جثة هامدة فيصيبنى ضر لأنهم يعلمون مقدار ميلى إليك وحبى لك وعطفى عليك ومعذرة يا بنى اذا تركتك فى الأيام الثلاثة التى أنهيت بها تاريخك فى هذه الدار الفانية فلم أكن لأتوهم أن ليس لك برء من دائك ولأن أصحاب المصالح لا يسمحون لرجالهم بهجر أعمالهم طويلا ماداموا قد ارتبطوا معهم بعقود واعف عن أبيك اذ اعتبرته مقصرا

فى حقوقك فأن الوظيفة التى أشغلها فى بلد بعيد ولعن الله الغربة ففى مثل موقفى معك وحيرتى فى إدراك تشييع جنازتك على جناح السرعة خشية تصرف رهطى فى دفنك قبل مجيئى إليك يظهر ضررها بوضوح ومع ذلك فضررها وقتى يزول ما دام فى الأجل فرجة وفى العمر بقية ولكن الموت هو الذى يحرم الأخ من رؤية أخيه والأب من الائتناس ببنيه والمرء من عشيرته وذويه وهو الصاعقة التى تنقض فلا تبقى ولا تذر والمصيبة التى ليس لها دواء ولا راد لقضاء الله وقدره

لى رغبة فى أن أطيل الكتابة فى رثائك وأن يبلغ القلم مداه فى تعداد مناقبك فلم أوفق لأن الأسى لم يجعل لى مجالا فى التفكير وكلما كتبت سطرا بللته دموعى ومحت أثره والقلم يرتعد فى يدى فلا يخط حرفا إلا بشق النفس

يا بنى قد كنت وديعة عندى وقد طلب الوديعة صاحبها وحاشا أن أكفر بالله فله الأمر من قبل ومن بعد وليس لمخلوق فى نفسه شىء مهما كان من أمره وباطلة تلك الزخارف

التى يتمتع بها الناس فى المدائن والقرى ولابد لكل مخلوق من الزوال إن عاجلا وإن آجلا

يابنى سأكتم الحزن فى نفسى وسأصبر ان استطعت إلى ذلك سبيلا لاسلوة عنك ولا طمعا فى الارتزاق بسواك بل إذعانا لأمر الخالق جل وعلا والسلام عليك ورحمة الله الى يوم يبعثون ؟

نصيحة

ما جمعتنى المجامع مرة مع رفقائى من المدرسين إلا ودار حديثهم على ما يعانونه مع الطلاب فى مقاومة الشذوذ الخلقى الذى بلى به بعض من لفظتهم الآداب ونفتهم من حظيرتها على نحو لم أعهده ولم أصادفه فى مزاولتى لهذه المهنة

ولو أنى دونت ما ذكروه أمامى لطال بى الشرح وخرج عن طوقى وعى ما سردوا إذ ليس من المعقول فى شىء أن يسىء التلاميذ إلى أساتذتهم لأن الذى يخرج المرء من دائرة العماوات إلى نور العرفان جدير بالاحترام ولا يجب أن يساء إليه بلفظ جارح أو حماقة ممقوتة أو كبرياء سافلة

وإنى لموقن أن الأستاذ بمعناه أى الغيور على صناعته المخلص فى مهنته العارف بدقائق دروسه لا يمكن أن يناله ضير لأنه بهذا يخلق لنفسه نفوذاً أدبيا يحمل الجميع على طاعته بدون كبير عناء

على أن الطلاب الذين يخلون بنظام الفرقة ربما دعاهم إلى هذا ضعف مادة المعلم أو استهتاره بمستقبل أبنائه أو حدة طبعه لسبب أو لغير سبب أو قذفه فى حق عائلاتهم بالسب القبيح وعندئذ إذا ثارت ثائرتهم فى وجهه يكون لهم بعض العذر لأنه يجب أن يكون أنموذجا لكل رقى ممكن ليأمن جانبهم وليحتفظ بكرامته ولأنهم ينسجون على منواله ويقلدونه فى عباراته وطبائعه وقد قيل (إذا زل عالِم زل بزلته عالَم)

ولست أقصد بهذا تبرير تلك الأخطاء المشينة التى يرتكبها بعض من لا خلاق لهم ولا أن أساعد جمهور الطلبة على معلميهم فما أنا إلا معلم فأكون بهذا قد أعلنت الحرب على نفسى وأسأت إلى شرف التدريس وهو قمين بكل سؤدد

وإنما أردت الأشارة إلى أولئك العاجزين الذين اندسوا بين صفوفنا فكانوا كالسوس ينخر فى عظام مكانتنا الرفيعة لأن الاعتداء على زميل بشكل مخز له وقعه وأثره على الجميع

وإنا لا نشجع أحدا على العبث بنظام الدروس بل نوجه كل توبيخ الى من يفعل ذلك لأنه لايضر الأستاذ سقوط هـذا النوع ولا يفيده نجاحه وإنما النفع وعدمه يرجع على الطالب ذاته فوجب عليه إذن أن لا يضيع وقته سدى وهو يدرى أن الأيام تنطوى بسرعة والمستقبل مظلم إلا إذا تغلب على عقبات الحياة واجتاز درجات التعليم درجة درجة

على أنه للمصلحة العامة يحسن أن يؤدى المعلم وظيفته فى جو هادئ لأنه لا يشتغل بعمل يدوى بل يكد ذهنه ويستخـدم مواهبه فى الطرق المؤدية إلى نجاح من وكل بأمرهم ولا يستطيع ذلك وسط الغاغة أو إذا امتهنت كرامته ألم يبلغك قول الشاعر

إن المعـلم والطبيب كلاهما «» لا ينصحان إذا هما لم يكرما

ولو فرضنا أنك شاهدت منه شدة فى بعض الأحايين

أو لم يرق فى نظرك لفظ تحداك به أو توهمت أنه عاملك بقسوة فمن الواجب أن تغفر له ذلك إذا عرفت أنه من العاملين على علو كعبك فى الحياة ومن الذين يضحون بحياتهم وراحتهم لأسعادك ولو اتصل بك ما يصادفه من المتاعب وما يتجشمه من المشاق فى سبيل تقدمك لأذعنت لأمره وارتضيت قوله

وربما كان الدافع إلى سوء التفاهم بينكما تقريعا صادرا من جانبه ليلفت نظرك إلى مايعود عليك بالنجاح أو عقابا لجأ إليه لتقصير أو إهمال وربما كان أيضا لأرشاد شفع بشىء من الشدة لأن جرمك هائل ولو اتسع عقلك كثيرا لقبلت يده وشكرت له هذا الصنيع

يقولون الأنسان عنوان أهله وكل إناء ينضح بما فيه ولا أظن أن كلاما كهذا يلقى على عواهنه من غير ثمرة فبرهن على أنك تنتسب إلى قوم سمت أعراقهم فلا تقلد حثالة التلاميذ فى تلك الصفات التى لا نرتضيها لك فأنهم إنما يردون هذا المورد لأنهم يرغبون فى أن يفسدوا عليك ثمرة مجهودك

العلمي ليحل بك ما حل بهم لأنهم موقنون بالشقاء وسائرون في طريق البوار ويسرون جدا لو أن المصيبة التي حلت بهم تحل بغيرهم ألا ترى السكير عند جلوسه أمام الكئوس يكون مقرورا لو شرب معه أكثر من واحد بل يقدمها لغيره عن طيب خاطر ويلح إلحاحا مرا ليقبلوها منه

وكيف تسوغ لنفسك أيها الطالب النجيب أن لا تمتثل لأمر الساهرين على مصلحتك بل كيف يسمح لك ضميرك أن توجه إليهم عبارات سخيفة فمن المعيب جدا أن يصدر عنك هذا الأمر

انصرف إلى دروسك فاحفظها وإلى واجباتك فأدها وكن رحب الصدر واحترم أساتذتك على الوجه الأكمل وكن لهم أخا صغيرا أو ابنا بارا يعترف بالجميل ولا تعكر صفو أحدهم مطلقا فما هم لك بأنداد حتى يقال أنك غلبت على أمرك امامهم

هذه نصيحتي ولا أري أمامي شيئا أغلى منها فمن شاء أن يكون من السعداء فعليه باتباعها وإلا فاللعنة إلى أبد

الآبدين والشقاء إلى يوم الدين

صورة فى الطريق

خدعها عن نفسها وأثر على وجدانها وأوهمها أنه مغرم بها غارق فى بحار محبتها وادعى لها الدعاوى الكثيرة وما أقدره على إخضاعها حتى أسلمت له قلبها وأسكنته بين جوانحها واعتبرته رمز هنائها وعنوان غبطتها وسعادتها

مسكينة هى إذ ظنته صادق الوعد وفيا وحسبته شريف النفس نبيل المقصد فلم تتأخر عن مجاراته فى تيار الغرام وخطت أناملها رسائل لا تدخل تحت حصر وهو يذيعها بين رصفائه مفتخرا بنجاحه حيث فشلوا وبامتلاكه روحا يحركها كيف شاء زاعما انه الآمر الناهى المتحكم فى عواطفها وما درت أنه من عصبة السوء يسعى لغرض لا يرتضيه المهذبون ولا يميل إليه المؤدبون

وكثر حولها رهط من العاذلين وجماعة من الذين يريدون مشاطرتها الهوى أسوة به فما نالوا مأربا ولا قضوا وطرا وتطوع لردها عن غيها بعض من أخذوا على أنفسهم مقاومة المفسدين فما استطاع أحد أن يثنيها عن غوايته أو يبعدها

عن مصادقته ومصافاته لأنها اندفعت إلى وداده بميل قوى فلا المعاول بقادرة على التفرقة بينهما ولا النصائح بمجدية فى أن تلزم حدها أو تحافظ على مستقبلها وكأنك إذا خاطبتها فى هذا الشأن وذكرت لها السيئات فهمتها على عكس ماتريد لأنها قد جد بها الوجد وشاءت لها الأقدار أن تكون ضعيفة الأرادة والحب فى كل حين كما زعموا يعمى ويصم

قال محدثى وكان بين المفتونين بها شاب آخر أعيته الحيل ليسمع منها لفظة تنم عن رضاها عنه أو قبولها إحلاله محل زميله فلما يئس منها لم يكن هينا عليه أن يتركها دون الانتقام منها إذ أراد أن يحل لنفسه ما حرمه على غيره . وهذا النوع إن أصيب فى أمانيه لم يجد أمامه باباً يلجأ إليه إلا الانتقام

تعقبها أينما توجهت ليؤذيها وهى فى غفلة عنه لا تفكر إلا فى الذى صادف من نفسها هوى وكثيراً ما قابلته فيشكو لها آلامه العارية عن الحقيقة وتشرح له حالها على نحو لا نحتاج معه إلى إسهاب أو إطالة

ويرى الآخر ذلك فلا يستطيع أن يملك نفسه وعيل صبره حتى توهم عارفوه أن به مرض ولكنهم لم يعلموا ما كمن فى صدره وما أقلق باله

ولم يمض وقت طويل حتى فكر المزاحم فى أن يأخذ صورتها وهى سائرة فى الطريق بجوار فتاها الذى شغفها حبا ليشهّر بها بين إخوانه ولترهبه فترتضى أن تميل إليه كرها أو على الأقل لا يكون للأول قدرة على السير بجوارها وفعلا تم لخصمها ما أراد إذ ملأ الجو صياحا لتشويه سمعتها وحجته واضحة جلية ألا وهى تلك الصورة التاريخية التى أخذت على قارعة الطريق من حيث لا يشعران .

فلما نشر على الملأ وسيلته استحسنها إخوانه ورأوا فيها بغيتهم فجهز كل منهم آلة للتصوير يأخذون بواسطتها صور الجنس اللطيف من فتيات وسيدات وهن سائرات غافلات وبعد ذلك يتبجحون بادعاءات مكذوبة بصلات بينهم وبينهن

هذه رواية محدثى الذى أقسم جهد أيمانه عن صحتها وموافقتها للواقع وأنه رأى بعينه تلك الصور وأنه متألم شدة التألم من هذه النغمة الجديدة التى يتغنى بها الشبان حيث أضافوا إلى سلسلة نكاياتهم نكاية جديدة وإن كان هو من زمرتهم فى التزلف الى صاحبة الصورة المشار إليها لأنه عندما كان يدير علىّ ذكراها كان شاحب اللون مرتعد الفرائص وفى إلقائه شيء من الاضطراب على غير ما أعهده فيه من رباطة الجأش وثبات الجنان

رواية مدهشة وخبر عجيب ومن الأخبار مالايهتم له الكتاب ولايعلقون عليه أصلا ولكن حادثا كهذا لايحسن السكوت عليه وفى اعتقادى أنه من واجب الباحثين والمفكرين ان يتناولوا هذه المسألة بالفحص والتمحيص حتى نتمكن من درء هذا الخطر المعيب

ولاتنتظر الفتاة منى أن أؤنبها أو أوبخها على تقصيرها فليس لى أن اتعرض لها او احمل عليها وإذا لم يكن لها وازع من نفسها فلاقدرة لنا على كبح جماحها وفى غير هذا المكان

من كتيبي هـذا أطنبت وأسهبت فى هذه النقطة فلها أن تزود نفسها بما أكثرت منه حول مثيلاتها ممن ضيعن كرامتهن

وفوق ذلك إذا علمت أن هنالك جيشا من الرقباء يتوقعون مراسم أقدامها ليتخذوا ضدها سلاحا ماضيا للاساءة اليها لما مكنتهم من ذلك ولـكسرت هذا السلاح باستقامة فى الخلق واجتناب لهذه الفئة المفسدة

نضرب لـكن الامثال يافتيات مصر فى كل حين ولـكنكن لا تـكترثن بالقول المفيـد ولا بالرأى السـديد ونشرح لـكن ما يحسن أن تتخذنه عبرة وماهى الاصرخة فى واد الا يخجل احداكن رؤية صورتها وهى عذراء بجوار فرد من الناس يغريها اليوم ويهزأ بها فى الغد بل ماذا تقول لزوجها يوم أن تتزوج بسواه عند ما يتصل بسمعه أنها كانت تسمح بمراسلة غيره ومرافقته من مكان إلى مكان

وإنى لأ تنبأ ان تنحل الرابطة الزوجية على جناح السرعة

اذا ألم الزوج بذلك الماضي المظلم حتى ولو ثابت إلى رشدها قبل اتصالها الشرعى بسنوات

وقل أيها الراوى قصتك إلى سيداتنا اللواتى يخرجن سافرات ويحملن أنفسهن ليبدين زينتهن لكل من يصادفهن لعلهن يرتجعن عن مظاهر هذه المدنية الكاذبة ويعدن إلى الزى القديم ليأمن جانب المصورين الذين يعمدون إلى هذه الطريقة رغبة الفضيحة وبغية التهديد المزرى بالشرف الرفيع والمكانة السامية

أنا لا أستطيع أن أتهم سيدة ماضية فى شأنها إذا تعرض لها اولئك النسور ولكنى لست أدرى إذا بلغ ذويها أن أمرءا يحمل فى جيبه شكلا يمثلها فربما اتهمت فى عفافها بالباطل وربما رميت بالخيانة ولا ذنب لها. إذن هذا عمل خطر يجب أن يقاوم بالقسوة والصرامة وطائفة كهذه يجب أن يضرب على أيديها

إن مخترع هذه الآلة لم يقصد بعمله الأضرار بالناس أو هتك الأعراض حتى تستوجبوا له اللعنة وإنما كانت ثمرة

عمله خدمة العلم والتاريخ والوقاية من العلل وبقاء أثر المرء إن أدركته الوفاة إلى غير ذلك فهل يرتجع المعتدون وهل يعتبر المفتونون وهل تفيق المهملات فلا يعرضن أنفسهن لذوى المطامع ؟ هذا ما نرجوه وليس لدى ما أقوله للذين يؤذون ربات الحجال بالباطل إلا قوله تعالى (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم)

وقفة بالاهرام

لجل المعاهد فى القاهرة عادة أن يذهب طلابها الى الأهرام مرة فى كل عام ليطبقوا العلم على العمل وليروا روعة ماشيده أجدادنا القدماء

وفى الكثير الواقع يجهز حضرات الأساتذة ممن لهم اثر يذكر فى استيعاب فن التاريخ محاضرات يظهرون فيها كيف نمت مدنية المصريين وكيف سبقوا غيرهم فى أساليب الحضارة المختلفة ويبرهنون على قدرتهم فى البناء والهندسة العلمية والفنون الجميلة إلى غير ذلك مما لا يدخل تحت حصر

وربما تضمنت بحوثهم وصفا ممتعا لما حواه الهرم الكبير وما تركب منه والسر فى إنشائه ولطالما نددوا بالبون الشاسع بين ذلك العصر الزاهر وبين ما نحن فيه من خمول وما اصابنا من تأخر وكأنى بهم يندبون حظ مصر النكد ويسكبون الدموع على تلك المكانة السامية التي انحط مقامها

فأذا ما انتهى أحدهم صفق له سامعوه استحسانا ثم انكفأوا يرتعون ويلعبون وليس لهذه العبارات أثر خالد فى نفوسهم كأنما كان يصرخ صرخة فى واد أو يشيد بعظمة أمة لم توجد فى ربوع هذا الوطن العزيز

وقفت هنالك يوما أسرح الطرف فى هذه الأطلال وأفكر فى انقضاء الدهور وهى باقية ولا ندرى إلى متى ستعمر ولا ماهو المدى الزمنى الذى سيمر عليها لتدل على مجدنا التالد وماضينا العظيم وبينا أنا فى تفكيرى وتأملاتى اذ استعرضت ذاكراتى قول نابليون المأثور (ان أربعين قرنا تنظر إليكم من قمة هذا الهرم فانظروا ما أنتم لها فاعلون) ليستحث همم جنوده فى واقعة امبابه عندما رأى الأهرام

أمامه فكان لكلماته وقع حسن فى نفوس أشياعه فبذلوا المهج رخيصة لأحراز النصر ولغتنا حافلة بما لا يقل عن قول هذا البطل الفذ وما اهتممنا بشىء من هذا بل نمر على الآثار كما لو شهدنا منظرا فى رواية ينقضى بانقضاء الفصل والانتقال الى غيره

هناك حيث العبرة لأنها ما اقيمت الا لتضم رفات اولئك العظماء ترى الناس يمرحون . هذا مع حسناء يغازلها وذاك مع غيرها يطارحها غراما خياليا وتلك مع أترابها ينتقلن من بقعة الى أخرى قصد الاستهتار والمزاح على نحو لم يرغب فيه من فاقوا العالم فى الرقى والتقدم

دلونى عافاكم الله على أمة ضمن لها التاريخ ذكرا أسمى من أمتكم أو حضارة تربو على حضارتكم أو تراثا يعدل التراث الذى خلفه لكم آباؤكم فما بالكم لا تستعيدون هذا الشرف العظيم وما بالكم لا تماثلونهم فى رفعة وطنكم ووضعه فى الموضع اللائق به بين الشعوب

ليست القيمة فى هذه الحجارة ولا رصها بجوار بعضها

وإنما هى رمز لما وصلنا إليه قديما من العبقرية والنبوغ وإنك ما قرأت كتابا يشار اليه بالبنان يبحث فى الحركة الفكرية أو العمران أو الآراء التاريخية الصحيحة إلا وجدت تلميحا بأن مصر مصدر النهوض فى العالم وتصريحا تستنبط منه أنه ليس فى الوجود شعب كشعبها في الحقب الخالية

ولقد جعلتم مكان فخركم مقر لهو ولعب فى حين أن الغربيين يفدون اليه ذرافات ليفهموا نصوص السؤدد المصرى وليعوا ما يرقون به شأنهم.

أليس من المعيب أيها السادة أن لا نجد كتابا واحدا مكتوبا بلغة البلاد شاملا لمدنية الفراعنة اللهم الا بعض نقط بسيطة دعت الحاجة إلى سردها وفق المناهج التى أقرتها وزارة المعارف وفيكم الكاتب الماهر والمؤرخ البارع والبحاثة النابغة وفى ذات الوقت نجد الأجانب على اختلاف نزعاتهم يتمتعون بكتب لا عداد لها مشروحة بلغاتهم وإنه ليؤلمنى أن نستقى مصادر تاريخنا عن الأجانب اذ يهتم الغربى به ولا نأبه نحن له بتاتا

يقول لك المؤلفون لا نضيع مجهودنا سدى فالجمهور لا يكترث بهذا النوع من الكتب ولا تروج الوسائل إلا إذا وضعت وفق غرض مدرسي فلم لا تكون المدنية المصرية موضع اهتمام فى المناهج فتذكر باستفاضة بدلا من تلك الشذور التى لا تغنى فتيلا

ولقد زعمتم معاشر المصريين انكم فى دور نهضة واستفاقة من ذلك السبات العميق الذى خيم على ربوعكم زمنا طويلا فلتكن نهضتكم شاملة لكل مرافق الحياة ولا أدل على ذلك من ظهور شمس حركة فكرية ساطعة وبخاصة فيما يتعلق بذكرى الوطن المفدى وتعضيد الجمهور لهذه الحركة الفكرية المباركة فما كل كتاب فى الشعوب الناهضة مقرر وما كل كتاب بائر

هذا الذى خطر لى فى وقفتى بجوار الأهرام وقد الهانى ذلك عن مناجاة أرواح أبناء مصر البررة الذين وضعوا الحجر الاساسى للرقى فى العالم بأسره

ولئن تعمد بعض المؤرخين الأساءة إلى خوفو بأن

ينسبوا اليه القسوة والاستبداد فليس بضائره ذلك فقد أثبت الحديثون عكس ما افتراه غيرهم

وهنالك نقطة أخرى فالهرم مع ارتفاعه الشاهق وثباته الى ماشاء الله لم يكن الا مقبرة فالملك الذى أمر باقامته مع جبروته وبطشه كما زعموا قدر لنفسه الفناء ورأى أن يكون مثواه الأخير عظيما كما كان فى دنياه عظيما فقدر للآخرة قيمتها ولكننا لا نقدر لها قيمة ولا نقيم لحسابها وزنا فالأعمال مخزية والميول غير مشرفة

ويا أيها المصرى الكريم لا تفاخر بهذا السؤدد القديم فانه ليس من عملك بل ارنا ما أردت ان تخدم به وطنك وأعد لمصر سيرتها الأولى وارفع رأسها عالية كما كانت ان كنت من خدامها الأمناء وأبنائها الحقيقيين

احترام المرأة

إن للاحترام معنى جميلا إذا صادف محله ومغزى جليلا إن كان لتقدير عواطف أتقياء السرائر وطاهرات الذيل وليست كل امرأة تحترم ولا كل غادة نطأطىء لها الرءوس إجلالا ولم يكن من واجبنا الحض على تكريم فاسدات القلوب

وبذل المهج لمن لا يحفظن العهود ولا يؤدين الأمانة لبعولتهن في السر والجهر

أنا لا أحب المراة الخائنة ولا أعذر الحسناء الغاشة ولا أحترم السيدة التي نسيت مقامها وأخلت بشرفها ولا أسر من اللواتي يغضبن أزواجهن في المساء وفي الصباح ويعكرن صفوهم في الغدو والآصال ولا أرضى مطلقا أن أجعل لمن خبثت نيتها وسفلت مبادئها مكانة في قلبي مهما وهبها الله من جمال فتان وحسن بديع قل أن تحظى به سواها

وكيف نحترم من لا نصيب لها في الخلق الحميد والتربية الراقية ومن ضربت بسهم وافر في سوء الآداب بل كيف نجل نسوة يعبثن بالشرف الرفيع وينقضن العهد ويبعن كرامتهن بأبخس الأثمان

وليس من رأيي أن أشايع الذين يأمروننا باحترام المرأة بلا قيد ولا شرط ويلزموننا بأن نجعل لها مركزاً سامياً دون أن نلقي نظرة على ماضيها وحاضرها كما اني لا أضم صوتي للذين خضعوا لها لمالها الجم وخلاعتها الخلابة وبسماتها المصطنعة

وبودى أن يأتى اليوم الذى يجب فيه أن تكون النساء جميعاً موضع الاجلال غير أنه يسيئنى من معظمهن عدم الاخلاص التام وصرف ميولهن فيما لافائدة منه وضياع أوقاتهن فى التفنن فى أساليب البدع المخزية والظهور بمظهر ينافى السمعة الشريفة ويؤلمنى منهن أن يطوين تحت جوانحهن مكرا سيئا وأن يفضلن الضلالة عن الهدى وأن يملن مع الشيطان فلا يقدرن الواجب ويحزننى أن يكون فى قلوبهن مرض فيصبحن كالأفعى تؤذى كل من لمسها وتفرز سمها فيهلك به من رماه بخته العاثر بين أنيابها

ولا أدرى كيف أسمح لنفسى أن أكون حكماً فى شرح مكنون أفئدتهن وما سبرت غور كل قلب وما علمت عنهن الا النزر اليسير

وإنى لأخشى أن يعلن الجنس اللطيف على حربا شعواء لاقدرة لى على خوض غمراتها وينالنى منهن الطعنات تلو الطعنات لأنهن يتعصبن لنوعهن تعصباً شديدا ولايتوانين طرفة عين عن المحاجة والمساجلة فى الشىء الذى يتعلق بهن ولو علمن

أنى لاأريد الحط من قدر شخص ولا أرغب فى إهانة إنسان وإنما أميل إلى رقي الأخلاق جهدى لعفون عنى وقدرن مبلغ تمسكى بأعزازهن ورفع شأنهن الى مستوي الملائكة الأطهار

ولا يحاسب الكاتب إن أدلى بآرائه للناس عن حسن نية ولا يحاكم بصرم حباله إن تبين أنه من الأوفياء المخلصين ويلتمس له العذر إن ابدى غيرته على الاحتفاظ بحسن الأحدوثة لشعبه وأمته وإن أصبت كبد الحقيقة وانتفع الناس بما أكتبه فذلك من فضل الله وأما إذا أعرض جمهور القراء عن فقراتى ومبتكراتى فما أنا بأول إنسان طويت موضوعاته كطى السجل للكتب

على أنى أمقت من يعاملها بخشونة ويعتبرها كالأنعام فيضربها لسبب اولغير سبب ويجعل حياتها تمضى فى هم وغم ويصب على رأسها صنوف العذاب فذلك شر خلق الله وألعنهم سيرة وأسوأهم عملا

وفى نظرى أن الاحترام واجب للمرأة متى كانت جديرة به أى إن سلكت سبل الصالحين ورفضت مايزرى ومايشين

رفضا تاماً وابتعدت عن الخرافات بعد السليم من الاجرب وبرهنت على علو نفسها ورقى صفاتها بما تبديه من عفة وطموح الى العلياء وتقديس لمقامها الجليل ومعرفة ماينفعها والتخلى عن مايضرها

والمرأة المحترمة هى التى تمر باللغو مر الكرام ومن تخلص لزوجها فى السراء والضراء والتى لاتخشى فى سبيل محافظتها على زهرة العفاف بأسا ولا رهقا ومن تعاون البائسات وتساعد الفقيرات وتأخذ بيد الضعيفات والسباقة إلى الخير والقائمة بواجبها خير قيام والعاملة على مجد أبنائها وإسعاد بناتها

وأخص بالاحترام كل كريمة تأخذ بيد المروءة وتنهج نهج الفضيلة وتسكن فى قلوب أبنائها منذ نعومة الأظفار محبة ألاوطان ولاتكون من اللواتى يئسنا نحن معاشر الكتاب من إصلاح ما اعوج من استقامتهن فتخذن جمالهن سلاحا للعبث بالوارثين وغير الوارثين .

وصفوة القول لأصحاب مبدأ احترام المرأة هو أن يعملوا على تعليمها وترقية مداركها ونشر ألوية النصائح الثمينة

فى الأماكن التى تغشاها وأن يكون لنا منهم قدوة حسنة وأن تكون المرأة مرآة نظيفة نرى فيها صورة حية لما يتناسب مع الأنسانية تناسباً صحيحاً ولهم علينا أن نطيع أوامرهم فى احترامها وتكريمها وتفضيلها حتى عن نفوسنا بل هذا ماتتمناه ونرجوه إن كنتم لخدمتها عاملين واياها تكرمون

اليها

إليك أيتها الفتاة المهذبة التى تلألأ عقلها بلآلىء أولى النهى أكتب هذه الرسالة ولا غرض لى إلا أن تتمعنى بنودها وتستوعبى فصولها بفكرك الوقاد

ولا تظنى أنى نسيتك فأن الأيام وان فرقت بينى وبينك فأنى لا ازال باقيا على عهدى وأجلك ما حييت لا لجمال يأخذ بمجامع القلوب ولا لمال يضيع على موائد الجهل ضياع الطائر من يد الصياد الذى لايحسن الرماية وانما أحترمك لأخلاصك ووفائك وأشكرك على عطفك وحنانك وأميل اليك لمروءتك وشهامتك وأعظم مقدارك لسمو نفسك ورقى آدابك

لا تستغربي قولي إذا بني على الصراحة فأن اللؤم الذي لا أرضاه لك لا أرضاه لنفسي وحرية الضمير قد جبلت عليها فحبذا لو كنت كذلك

واني والحمد لله لم أسلك طريقا مخلا بالآداب من لدن عرفتك ولا أميل الى غشك وخداعك فأن الغش والخداع حبائل الغواية والضلال اللذين أربأ بك أن تقعي في بؤرهما وأستكبر على ذكائك النادر أن لا تبعدي عن القلوب الفاسدة بعد الأرض عن السماء وأنت المعروفة بحب الشرف وصيانة العفاف

لا يغرك الأطراء ولا يخدعك الثناء ولا تجعلي لتلك البسمات المصطنعة تأثيراً على فؤادك النقي الطاهر ولا تصدقي تلك الوعود الكاذبة فأني أخشى عليك ان تتناوبك الآلام وتعبث بهيكلك المقدس الايام

وأني اخفف عن القارىء مؤونة البحث عن أمر هذه الفتاة فهي كل فتاة مصرية نشأت في ربوع وادي النيل ويهمنا شأنها ويجب علينا أن ندرأ عنها الخطوب ما دامت

الأرواح فى الأجساد . أيتها الفتاة

إن الملابس ما جعلت إلا للوقاية من الحر والبرد لا لأظهار أجزاء الجسم من خلالها والطرقات ما وجدت إلا للسير لا للخلاعة والتثنى فالزمى الزى الذى يستر جسمك وسيرى فى طريقك بنظام تام

أيتها الفتاة

لا تتيهى على الناس بعلمك فأن التواضع أجدر بك وأبقى عليك وثقى ان الناس لا تحترمك الا لآدابك فلا المال ينفعك ولا الجاه يسعدك بغير تلك الوردة الزاهرة وهى العفاف . ايتها الفتاة

عرفناك بعلمك الواسع فلا تشابهى الجاهلات فى شؤونهن ولا تجعلى رغباتك محصورة فى سفه الحلم وخطل الرأى فأنت أسمى من أن تجعلى أفكارك فى غير ما منفعة ولا فائدة

أيتها الفتاة

لا إخالك تشمئزين من النصح وقد علمت أنى أودك

السعادة بكامل معانيها فلا تطوحي بنفسك في مطارح الهلكة ولا تصاحبي من سفل مبدؤها أو سيئت سمعتها واعلمي أن النفوس التي سمت تحجم عن الغدر وتعاف الخيانة ولا تفكر يوما ما في الأذى إذ هو ألصق بالسفلة وألصق بالأفئدة الصادئة والنفوس الوضيعة التي لا يمكن كبح جماحها ولا ردها عن ضلالتها

أيتها الفتاة

هذا قليل من كثير وقبل أن أختم قولي أذكرك بنصائحي وأسأله تعالى أن يكلأك بحراسته ويشملك بعنايته وأستودعك الله .

تصحيح الأخطاء المطبعية

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥	٧	. . . .	تضاف كلمة (ضياع) على آخر السطر
٦	٣	صوبا	صوابا
٩	٧	. . . .	تضاف كلمة إن بعد (أرى)
١١	٤	لسلطاته	لسلطانه
١٢	١٦	السبيل لديك	السبيل إليك
٢٢	١	لمخلصة	المخلصة
٢٣	٣	ولرياء	والرياء
٢٣	١٤	العا	العاثر
٢٤	٧	حرجت	خرجت
٢٩	١	يستطع	تستطع
٣٨	١٦	يقفن	يقفون
٦١	١٦	بين	اليمين
٦٩	١٦	جبال	جبالا

مواضيع الكتاب